

ألف ليلة وليلة
حسن جوهر
محمد أحمد برانق
أمين أحمد العطار
١٢

ألف ليلة وليلة

الجزء الثاني عشر

علاء الدين و المصباح العجيب

كتبه

حسين جوهر

أمين أحمد العطار

الطبعة الثانية



دار المعارف

رسوم: الفنانة النمساوية ستيلا يونكرز

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الجزء الثانى عشر

صفحة



عجيب وغريب وسهيم الليل

١

كندمر ملكٌ عظيمٌ وشجاعٌ شهم ، رزقهُ اللهُ على الكبر ولداً سماهُ عجيبا ، فرباه وعلمه ، ولقنه شرائعَ دينه على يد كاهن من كهانه ، وأخذه بضروب الفُروسية وركوب الخيل وأبواب القتال والحرب ، وبَدأ العقد الثانى من حيَاته مغتراً بشجاعته وسلطان أبيه ، فكان يخرجُ فى ألف فارس إلى الطرق فيزْعج أمنها ، ويقطع السير فيها ، ويسبى بنات الأمراء والكبراء ، فكثرت الشكوى منه إلى أبيه ، وضجَّ من مُعاملته كلُّ قريب وبَعيد ؛ فأمرَ أبُوه بضربه وتعذيبه وحَبسه فى مكان مظلم لا يَرى فيه يَده ، وبعد يومين من حَبسه شفع فيه الوزراء عند أبيه فعفا عنه وأطلقه.

كانت نفس عجيب مُمتلئة غيظاً من أبيه ؛ لأنه ضربهُ وعذبه

وحبسه ، فانتظر عشرة أيام بعد خروجه من الحبس ودخلَ عليه ليلاً في حجرة نومه وذبحه .

وفي الصباح جلس على كرسيِّ الملك ، ورجاله وأعوانه وقوفٌ من حوله ، وسيوفهم في أيديهم مُصْلَتةٌ مشهورة ؛ ولما حضر الوزراء والأمراءُ إلى قصر الملك على عادتهم أراهمُ ما فعله بأبيه وقال لهم :

من رَضي بي مَلكاً فقد حقن دمه ، ومن اعترض وعصى سفكتُ دمه ، وكان مصيرُه مصيرَ أبي ؛ فخافوا على أنفسهم وقالوا :

أنتَ ملكنا ، ونحنُ أعوانك المخلصون ؛ فاطمأنَّ فرحاً وأسبغَ عليهم ماله وإحسانه ، كما أسبغ على رُوساء البلاد عطاياهُ ومنحه ، فأطاعه الناس ودانوا لهُ بالولاء مُرْغمين !

وبعد خمسة أشهر من حكمه ، رأى في منامه ما أفزعه ، وطرد النومَ من عينيه بقيةَ ليلته ؛ فأحضر إليه في الصباح المفسرين للأحلام ، وقال لهم :

رأيتُ الليلةَ في منامي كأن أبي قُدَّامي ، وقد خرج منه شيءٌ صغيرٌ في حجمْ النحلة ؛ فجعلَ ينموُ ويكبر حتى كان سبعاً لهُ أظفارٌ كالخناجر ؛ فوثبَ عليَّ ، وبقرَ بطني ، فانتبهتُ خائفاً مذعوراً ؛ فما تأويلُ هذه الرؤيا ؟

فنظر بعضهم إلى بعض ، وفكروا ملياً ثم قالوا :

سيولدُ لك أخٌ من أبيكَ ، وتضطرمُ بينكما نارُ العداوة والبغضاء ، وسيظهرُ عليك ؛ فخذْ حذرَكَ منَ الآن .

فثقل عليه قولهم ، وتشاءم منهم . وطردهم ، ثم أمر أنْ تفحص جوارى أبيه ، فعثر من بينهن على جارية حُبلى ، وقد مضَى على حملها خمسةُ أشهر . فأمر عبدين من عبيده أن يأخذاها إلى البحر ويغرقاها فيه .

كانت الجاريةُ جميلةً مؤدبة . ولما ذهب العبدان بها إلى البحر ، عز عليهم أن يغرقا هذا الأدب والجمال والخلقَ الكريم من غير ذنب أو جريمة ، واتفقا على أن يتركاها فى غابة بعيدة . ويفوضا أمرها إلى الله ؛ فسارا بها فى الصحراء وأبعدا فى المسير ، فوجدا غابة كثيرة الأشجار غزيرة المياه . فتركاها فى الغابة وحدها . وقالا لها : لو استطعنا أن ننجيك من الغرق بأحسنَ من هذه الحيلة لفعلنا .

فحمدت لهما كريم معروفهما . وقالت : تركتمانى عند ربى الذى خلقنى ، وهو أرحمُ بى من أمى وأبى .

ثم رجعَ العبدان فلقيهما جماعةٌ من قطاع الطريق فقتلوهما .

أقامت الجاريةُ فى الغابة وحدها : تأكلُ من ثمارها ، وتشرب من مياهها ، حتى أتمت مدة حملها ، ووضعتْ ولداً سمته غريباً ، وعكفت على إرضاعه حزينةً مستوحشةً ، لا تدرى ما يضمر الغيبُ لها .

وبينما هى جالسةٌ يوماً من أيام وحدتها . وابنها فى حجرها تُرضعه ، إذ بفرسان قادمين إليها ، وكانوا خمسمائة من بنى قحطانَ . خرجوا للصيد فى قيادة أميرهم مرْداس . وكانوا قد صادوا كثيراً من الحيوان والطير ، فسألها الأمير عن أمرها واعتزالها فى هذه الغابة . فسردتْ عليه قصتها غير تاركة منها شيئاً . فعجب الأميرُ من ظلم الأقوياء للضعفاء ،

وفاض قلبه رحمة بها ، وعطفاً عليها ، فرجع بها إلى بيته وتزوجها ، وعاشت فى ظلال من نعمة سابغة ، وكنف من العز والسيادة ، وحملت من الأمير فولدتْ لهُ وَلداً سماه سهيم الليل ، ففرح به كما فرح بأخيه غريب من قبل ، وعنى بتربيتهما وتعليمهما أمور الدين وضروب الفروسية ، فكانا موضعَ إعجابه وإعجاب قومه ، وكانا لهُ أعظم قوة .

وكان لمرداس ابنة اسمها مُهديَّةُ بارعةُ الحسن ، رائعة الجمال ؛ تهامس الناس بفتنتها ، وشاع بينهم ما هى عليه من خلق كريم ، وطبع جميل ؛ وترامت أخبارها إلى الحمل بن ماجد سيد بنى نبهان ؛ فخطبها من أبيها مرداس لنفسه ، فما رضى مرداس أن يزوجها منه ، ورده خائباً ، فلم يحتمل ابنُ ماجد هذه الصدمةَ ، واعتبرها إساءةً له من مرداس ، فعزَمَ على أن ينتقم منهُ ، وأن يغزوه ويخطفَ ابنته مهدية أسيرةً .

انتهز الحملُ بنُ ماجد فرصة غيبة مرْداس عن دياره فى حفلة عُرْس دعاهُ إليها أحد أمراء العرب ، وأغار على دياره فى خمسمائة فارس ، وقتل كثيراً من الرجال وسبى كثيراً من النساء وفيهن مهديةُ بنتُ مرداس .

وكان غريبٌ وأخوه سهيم قد خرجا للصيد فى جماعة من الفرسان ، فلما رجعوا إلى الديار وجدوا الحملَ بنَ ماجد وفرسانه قد مزقوا شمل الرجال الذين فيها ، وسبوا مهدية وغيرها ، فثارت ثائرتهما وخاضا غمار حرب طاحنة أذاقا فيها الحمل وفرسانه الويل والهلاك ، وقتلا الحملَ وكثيراً من أتباعه ، ولم يجد بقيتهم منجاةً لأنفسهم إلا الفرار ، تاركين من أسروا من الرجال ، ومن سبوا من النساء ، وردوا إلى الديار كرامتها ،

وذاع صيتُ غريب وأخوه فيها . ولما رَجعَ مرداس ُ وجدَ أثارَ معركة حامية فى الديار وحولها ، ففزعَ وسألَ عما وَقعَ فى غيبته : فالتفَّ الرجالُ والنساء من حوله . وقصوا عليه ما حصل . وجعلوا يثنون على غريب وأخيه سهيم وشجاعتهما وقالوا :

لولا غريبٌ وشدةُ بأسه لوجدتَ الديارَ خراباً .

وقالت مهديةُ ابنته :

لولا غريبٌ لكنت الآن فى قبضة الأعداء أسيرةً ذليلةً .

فزاد فرحُ مرداس بغريب . وأثنى عليه ثناءً جميلاً ، وقال : أثمرت تربيتى . وبورك لى فيك . وكان سهيم قد جرح فى هذه الموقعة .

٢

عرف غريبٌ أن مرداساً يحبهُ . وأن لهُ منزلةً سامية ، وقدراً عظيما فى نفسه ؛ كما عرفَ أن ألسنة القوم تلهجُ بالثناء عليه فى كل مكان ، فأطمعهُ هذا فى الزواج من مهديةَ وخطبتها من أبيها ، وتحدث برغبته هذه إلى بعض أصحابه ، ونقلها هؤلاء إلى غيرهم ، حتى ملأت أسماع الناس ، وطرقت آذان مرداس .

وظن غريبٌ أن هذه الرغبةَ محببة إلى مرداس ، وسيزيد بها عنده رفعةً فى قدره . وتوثيقاً فى الرابطة بينهُ وبينهُ ، كما ظنها آية كبرى لولائه ووفائه ، ومظهراً لاندماجه فى بيت مرداس ، حتى كأنه خلق من

دمه ، له عليه واجبُ الابوة وطاعةُ البنوة ؛ ولهذا كان عظيم الأمل فى تحقيقها . قوى الرجاء فى الاستجابة إليها ، ولم يدر أن القدر يتجهُ بها إلى غير ما يرجو ويأمل ، فتقدم إلى مرداس ، وطلب يد ابنته مهدية ، وخطبها منه ، وانتظر الترحيب والقبول ؛ ولكن كم كانت دهشته حينما رأى إعراضَ مرداس عنه ، وقد بدا على وجهه أنه غضب غضباً عظيماً ، إذ رأى فى ذلك من العار مالا يحتملُ السكوت عليه ، وقال فى نفسه :

كيف أزوج ابنتى منَ ابن جارية منبوذة فى العراء ، وما رَضيت لها أبناء الملوك والأمراء ؟ ! إن فى ذلك عارًا لا يغسله إلا دمُ هذا الفتى ، ابن الغابة ، وابن الجارية .

وأفضى مرداسٌ بهذا إلى رجل من عقلاء قومه ، فقال الرجل :

إنك أنقذته وأنقذت أمه دونَ دم سفكته أو سيف شهرته ؛ أما غريبٌ فقد أنقذ ابنتك وأنقذ قومك وأهلك بسيفه الذى قهر به أعداءك ، وخاضَ غمرات الموت من أجلك ؛ فما أعظم وفاءه ! ! وما أخلص ولاءه ! فلا تكن بقتلك إياه أغدرَ وألأمَ .

فقال مرداس : لقد أخرجنا هذا الفتى من خزى الهزيمة والأسر والسبى بقهره أعداءنا ، إلى عار الفضيحة بطلبه مصاهرتنا ، ولا بد من قتله .

فقال الرجل : إذا كنت مصراً على قتله فلا ينبغى أن ينسب إليك أنك قتلته بسيفك ، أو يعرف الناس أنك أغريت به ، ودبرت له من قتله ، فإنه — كما قلت — غدرٌ ، والغدر لا يليق بشرفك ومروءتك .

فقال مرداس : عليكَ أنت تدبير الخطة لقتله ، بحيث لا يمسنى

منها لغو ، ولا تمسنى منها ظنون ؛ فلا يقول أحد : قتل مرداسٌ منقذ قبيلته ، ومنقذ شرفه من الأسر والسبي . فقال الرجل يخرج غريب للصيد كعادته ؛ ثم تخرج أنت للصيد فى جماعة أشداء من فرسانك . وتكمن لغريب فى طريق عودته من صيده . فإذا رأيته قادماً فاهجم عليه وعلى من معه بفرسانك ، من غير أن يعلموا أنهم يهجمون على غريب وعلى رجاله ، ولكنهم يظنون أنكم تهجمون على جماعة من الأعداء وعلى جماعة أتيحت لكم فى طريقكم إلى الصيد . فخرجتم لنهب أموالهم . فإذا ما قتلته عدت بفرسانك إلى الديار ، وارتقب أمام الناس عودة غريب ، وفرسانه من رحلة صيده .

اطمأن مرداسٌ إلى هذا التدبير وأعجبه ؛ وبعد أيام خرج غريب للصيد مع رفاق له . فرأى مرداس فرصته ، فأخذ معه مائة وخمسين من فرسانه الأقوياء ، وسار بهم فى طريق غريب الذى سيرجع منه ، بعد أن ينتهى من رحلته . وفى أثناء سيرهم وجد مكمناً فى جبل فعرض عليهم أن يستريحَ فيه بعضَ الوقت ، حتى يزول ما شعر به من تعب ؛ فاختبأوا فيه ، وما لبثوا غير قليل حتى هجم عليهم أخو الحمل بن ماجد الذى قتله غريبٌ ، فى خمسمائة من العمالقة ليأخذ بثأر أخيه ؛ وكان قد وضع عليه الرقباء والجواسيس ليأتوه بخبره فلما خرج للصيد طاروا إليه فأخبروه بذلك ، فقتل منهم ستين ، وأسر مرداساً ، وبقية فرسانه التسعين . . فأوجع مرداساً ندمه ، وقال فى نفسه : لقد مكرت بغريب ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، وأقام أخو الحمل فى هذا المكان ليبيت فيه

و يريح فرسانه ، ثم يرحلوا فى غدهم أو بعد غدهم راجعين .

كانت مهدية تعلم الغرض الذى خرج أبوها فى الفرسان من أجله ، فدخل عليها أخوها سهيم لزيارتها وسألها عن أخيه غريب فقالت : إنهُ خرجَ للصيد ، و إنى مخبرتك الآن بأمر خطير شأنه ، وخيمة عاقبته ؛ وجلت له ما دبره أبوها لقتل غريب ، ثم قالت :

فوجبَ عليكَ الآن أن تكون عند أخيك ، وتطلعهُ على ما دبر له أبوك ليبطل كيده ، فإن قتل أخيك خسرانٌ مبين ، فهو الذى كشف عنا بلاء الأعداء ، ولولاه لمتنا وطمست آثارنا .

فأظلمت الدنيا فى وجه سهيم وخشى أن ينزلَ القضاءُ بأخيه قبل أن يدركه ويصل إليه ، ولهذا ركب جواده ، وتقلد عدة حرْبه . وأسرعَ إلى أخيه فوجده فى مكان صيده ومعه كثيرٌ من المصيد ، فعتب على أخيه غريب أن خرجَ دون أن يعلمه ، فقال :

أشفقت عليك لأنك لا تزال جريحاً ، فأحببت أن أريحك حتى تشفى . فلماذا جئت وأتعبت نفسك ؟ !

فقال سهيم : جئت لأطلعكَ على ما دبر لك أبى مرداسٌ من غدر وغيلة ، ثم أطلعه على جملة الأمر وحذره .

فقال غريب : وقانا الله شره ، ولن يصيبنا إلا ما كتب لنا .

رجع الأخوان : غريبٌ وسهيمٌ وهما حذران يقظان : وقربا من مُعسكر أخى الحمل بن ماجد ليلاً . فسمعا صهيل خيل واقفة . فقال سهيم : هنا أبى وجماعته ، فسر بنا فى طريق بعيد عنهم حتى ننجو منهم .

١٣

فقال غريب : انتظرنى هنا .

ونزلَ عن جواده ، ومشى إليهم مستخفياً . فسمع جماعة منهم يتهامسون و يقولون ما نقتل مرداساً إلا فى أرضنا . وعلى ملأ من قومنا ، و بذلك تطمئن قلو بنا فى صدورنا بعد أن أقلقها غريب بقتل أميرنا الحمل بن ماجد .

فعلم من ذلك أن مرداساً وجماعته وقعوا أسرى فى قبضة رجال الحمل ابن ماجد ، واسترق الخطا ، ومشى الهوينى مترفقاً . حتى كان بينهم ، وعرف مكانَ مرداس ورجاله ، فسار حتى اتيه . فحل وثاقه . وقال له هامساً فى أذنه : سلمت وسلم رجالك . وقال له : خذ جواداً وتسلل إلى أخى سهيم فى مكانه . . . وكذلك فعل ببقية رجاله التسعين . ثم رجع إلى أخيه فوجدهم عنده . وقال لهم : فى الثلث الأخير من هذه الليلة نحيط بالأعداء فى معسكرهم ونصيح قائلين : يا بنى قحطان : اضربوا فوق الأعناق . . . فيهبون من نومهم يقتتلون ، و يضرب بعضهم بعضاً . وحينئذ ننسحبُ بعيدين عنهم حتى الصباح ، ثم نهجم عليهم بأسلحتنا بعد أن يكونوا قد ضعفوا ، وأباد بعضهم بعضاً ، فيولون الأدبار خاسرين .

وكذلك فعلوا ما أشار به عليهم غريبٌ . فهزموهم ، وأخذوا أسلابهم ، ورجعوا إلى ديارهم فرحين ، وذاع خبرهم فى الأحياء فارتفعت منزلة غريب فى نفوس القوم . وأحبوه ، وأقبلوا عليه يهنئونه ، و يثنون عليه.

٣

رأى مرداس نجم غريب يتلألأ فى سماء قومه ، فحنق عليه ، وزاد بغضه إياه . لأنه ظن أن صنيعته معه وإنقاذه من الأسر هو ورجاله سيزيده هذا طمعاً فى مهدية ابنته ، وأنه سيخطبها منه علانية ، وأفضى بما فى نفسه إلى رجل من عقلاء خاصته ، فقال الرجل لا يزعجك هذا ، واطلب منه مهراً لابنتك إن خطبها لا يقدر عليه ، وحينئذ تكون قد أرضيت نفسك بالحيلولة بينه وبين ابنتك ، دون أن تظهر له بمظهر الرافض الطارد . فتقبل مشورة صديقه فرحاً مثنياً عليه .

وفى الصباح جلس مرداسٌ فى خيمته . وجاءه رجال حاشيته من كبراء العرب ورؤسائهم ، يجلسونَ معه حسب عادتهم ، وأقبل عليهم غريب فاستقبلوه استقبالا كريماً وجلس معهم ، ثم قال :

يسرنى أن أكون منكم ، ويشرفنى أن أتقدم إلى ابنة الملك مرداس خاطباً . وأملى عظيمٌ فى قبولى زوجاً لها ، فما أنا إلا ابنُ الملك مرداس ، وصنيعةُ يديه ومروءته .

فقال مرداسٌ : نحن لا ننسى فضلك ومروءتك ، وبنتى مهدية شىء يسيرٌ بجانب ما قدمته إلينا من معروف ، ولكنك تعلم أن مهر بنات الملوك لا يقدرُ عليه إلا الملوك وأبناؤهم ، ولو أن عرفَ العرب يرتضى أن أهديها لك لأهديتها لك دون مهر ، راضية بذلك نفسى ، لأنك أعز عندى من ولدى .

فقال غريبٌ : شكراً لك ، واطلبْ منى ما تشاء من المهر .

فقال مرداس : وهناك شيء آخر لا يقل شأناً عن مهرها ، فقد حلفت ألا أزوج مهدية إلا ممن يأخذ بثأرى من أعدائى .

فقال غريب : ومن أعدؤك هؤلاء حتى أشفى غيظ قلبك بسحقهم يطمس آثارهم ؟

فقال مرداس :

كان لى ابن شهم بطل ، خرج إلى الصيد ومعه مائة فارس ، وجعلت لبرارى تتقاذفهم وهم يسيرون حتى وصلوا إلى وادى الأزهار وقصر صاص بن شيث بن شداد بن عاد ، وفى هذا الوادى رجل أسود اللون كأنه الليل ارع الطول كأنه النخلة ، بلغ من قوته أنه يقتلع الشجرةَ ويحارب بها ، طلع هذا الرجلُ على ابنى فقتله وقتل فرسانه ، وما نجا منهم إلا ثلاثةُ رسان هربوا فى جنح الظلام ، وأخبرونا بما جرى ؛ فذهبتُ بجنودى قتاله ، فكاد يهلكنا ، ففررنا منه خائفين حانقين ، وحلفت ألا أزوج بنتى إلا ممن يثأر لى من هذا الأسود اللعين .

فقال غريب : أعاننى اللهُ على الأخذ بثأرك وبلوغ مأربك فيه .

ثم انفلت إلى أمه وأخبرها بما عزّم عليه من الرحيل إلى وادى الأزهار ، قالت :

إن مرداساً يبغضك ، ويحتالُ لقتلك ، وما بعثك إلى هذا الوادى لا لتقبر فيه ، ويطفىء مصباح حياتك هذا العملاق الأسود ، وإنى شير عليكَ أن تأخذنى معك وترحلَ من هذه الديار الظالم أهلها .

فقال غريب : لن يكون منى رحيل إلا إلى وادى الأزهار ، ولن أرجع منه إلا فائزاً منصوراً .

وكان لغريب أصحابٌ من الفتية الأقوياء ، وعلموا من أمره ما علم ، فجاءوه وقالوا : إنا معك حيثما ذهبت ، فاضرب لنا موعداً نرحل معكَ فيه إلى وادى الأزهار ، فقال : شكراً لكم أيها الرفاقُ البررة ، وموعدنا صباحُ الغد . .

وفى الصباح جدوا فى المسير وأغذوا ، فوصلوا إلى جبل به ماء ، ونزلوا عنده ليستريحوا ويريحوا جيادهم ، وقام غريبٌ إلى الجبل يمشى فى نواحيه ، فوجد غاراً به شيخٌ معمر ، بلغ من العمر ثلاثمائة وأربعين سنةً ، غطت لحيته صدره ، واختبأت عيناه فى حاجبيه ، واختبأ فمه فى شاربيه ؛ فهابه غريبٌ واصفر لونه من الفزع . فابتدره الشيخ قائلا : كأن قلبك لم يثبته إيمانُ بالله القادر القاهر ففزعت وخفت ، إنكم يا معشر الكفار تعبدون من دون الله ما لا يملكُ لكم نفعاً ولا ضراً ، ولو آمنتم بالله الذى خلق الليلَ والنهار وسخر الشمسَ والقمر لثبت قلوبكم ، وآمنكم من خوفكم ، ونصركم على أعدائكم .

فقال غريب : وكيفَ عرفتَ هذا الإله أيها الشيخُ الكبير الفانى ؟

فقال : عرفته من آياته فى خلقه ، فهو الذى أبدعَ هذا الكون ، وهو الذى خلق الذكر والأنثى ، وهو الذى أمات وأحيا ، وهو الذى سخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى ، وهدانا إلى الإيمان به وعبادته الأنبياء والمرسلون ، فمن أطاعهُ أعزه ونصره وأدخله جنته ، ومن

عصاه أذله وأخزاهُ وأدخله النار . سبحانهُ وتعالى ! ! يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير . وإني يا بني من قوم عاد الذين طغوا في البلاد . وكفروا بنبيهم هود وأكثروا فيها الفساد ، فأرسل اللهُ عليهم ريحاً عاصفة فأهلكتهم ، وكنت قد آمنت بالله ورسوله ، فنجاني مع من آمن ، ولبثت في هذا الغار أعبد الله .

فقال غريب : لقد حببتَ إليّ دينكَ . فماذا أقول لأدخل فيه ؟ .

فقال الشيخ : قل : آمنت بالله الذي لا إله إلا هو . وآمنت باليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره .

فقالها غريب مخلصاً لله ، وعلمه الشيخُ شيئاً من وسائل التعبد ، ثم سألهُ الشيخ عن اسمْه وعن مقصده ، فقال : اسمي غريب . وقص عليه ما جرى لهُ ، وأخبره بما عزم عليه من الذهاب إلى وادي الأزهار . فقال الشيخ :

هل أصابك يا غريب مس من الجنون حتى تذهبَ إلى غول الجبل وحدك ؟ ! !

فقال غريب : إن معي مائتي فارس من الرفاق المخلصين المؤمنين .

فقال الشيخ : إن ذهبت إليه في ألوف مؤلفة من أشداء الرجال فما هم بمغنين عنك شيئاً . ونسألُ اللهَ لك السلامة من يده وسيفه .

فقال غريب : ما دمنا قد آمنا بالله وحده فقد سلمنا وفزنا . ومن هذا العملاقُ أيها الوالد الكريم ؟

فقال : إنه من أولاد حام ، واسمه سعدانُ الغول ، أعيا أباه خبثاً

وإفساداً فى الأرض فطرده ونفاهُ من بلاده . وساقهُ المسيرُ فى الأرض إلى هذا الوادى وسكن فيه . وقطع السبل على الغادين والرائحين ، ورزقَ بخمسة أبناء ، كل واحد منهم بألف فارس ، وقد ملأ واديه بالأموال والمغانم ، وأسأل الله أن ينصرك عليه بمعونته وتأييده . وإذا حملت عليه يا بنى فاذكر الله تعالى وقل : الله أكبر ، فإنه يذل كل من طغى وبغى وتجبر . ثم أعطاه عموداً من الفولاذ ، زنته مائة رطل ، وبه عشر حلقات إذا هزه حامله أحدثت صوتاً كأنه الرعد . وناوله سيفاً طوله ثلاث أذرع ، وعرضه ثلاثة أشبار . وأهدى إليه درعاً وترساً ، ووصاه أن يحمل فرسانه على الإيمان بالله وعبادته حتى يمدهم بنصر من عنده. فشكره غريبٌ وسلم عليه وسأله أن يدعو له بالنصر فى خلوته، ورجعَ إلى أصحابه فحدثهم بماوَجدهُ فى غيبته، ورغبهم فى الإيمان بالله ، فآمنوا وآمن معهم أخوه سهيم الذى أدركه فى رحلته، بعد أن علم من أمه ما خرجَ أخوه غريبٌ من أجله .

وساروا جادين حتى أشرفوا على وادى الأزهار ، فرأى غول الجبل غبار مسيرهم ، فأمر أبناءه الخمسة أن يخرجوا ويأتوه بما يغنمون من أصحاب هذه الغبرة القادمة . ورأى غريبٌ خمسةً من العمالقة مقبلين عليهم ، فلكز جواده وانفلت من بين أصحابه ولقيهم فقال لهم : من أنتم ؟ وماذا تريدون ؟

فبرز إليه فلحون أكبر أبناء غول الجبل وقال : احقنوا دماءكم بالنزول عن خيلكم ، وليكتف بعضكم بعضاً ، لنسوقكم إلى أبينا يشويكم ويأكلكم .

فهزّ غريبٌ عموده فى يده هزة صلصلت لها حلقاته ، وأدهشت ابن غول الجبل ، ثم ضربه به ضربة خفيفة أوقعته على الأرض ممدوداً كأنه النخلة السحوق الطويلة . وأسرع إليه سهيم وبعض من أصحابه وكتفوه ، وربطوا فى رقبته حبلا وجروه كما يجرون دوابهم ، فخف إخوته الأربعة ، وحملوا على غريب حملة عنيفة ولكنه فعل بهم ما فعله بكبيرهم ، إلا واحداً منهم ، فر إلى أبيه وقال : أسر إخوتى الأربعة فتى ما خط له عذار وما نبت له شارب ؛ فقال : ويل للجبناء ! !

ثم نزل من حصنه . واقتلع شجرة حملها فى يده ومشى بها راجلاً إلى غريب وصحبه ، وابنه من خلفه ، ثم ضربَ بها خمسة فرسان فهشمهم وضربَ بها سهيما ضربةً زاغ منها ولم تصبه ، فألقاها غول الجبل من يده ، وانقض على سهيم فخطفه ، فهجم عليه غريبٌ صائحاً : الله أكبر . . . وضربه بالعمودضربةً أسقطته مغشياًعليه ؛ ولما أفاق وجد أنهموثق بالكتاف بين أبنائه ، وحاول حينئذ ابنه الذى كانَ من ورائه أن يهرب ، ولكن غريباً أدركه ، وضربه بعموده فوقع عن جواده فى ذهول وغشية ، فكتفه وحمله وألقاه بجانب إخوته . ثم انتقل غريبٌ وصحبه بهؤلاء الأسرى إلى حصنهم فى وادى الأزهار .

وفى إيوان فسيح ممدود ، ذى بناء فخم ، وسقف مرفوع قد نقش بالذهب والفضة ، جلسَ غريبٌ على كرسى غول الجبل ووقف أخوهُ سهيم عن يمينه ، ووقفَ صحبه يمنةً ويسرة ، ودعا إليه غولَ الجبل فوقف بين يديه ثم قالَ غريبٌ له : كيف حالك الآن ؟

فقال : فى أسوأ حال ، وذلة ووبال ، أنا وأبنائى موثقون بالكُتُف والحبال .

فقال غريب : لأنكم عبدتم هواكم دون الملك الديّان .

فقال غول الجبل : ومن الملك الديان هذا ؟

فقال غريب : هو الذى خلق السموات والأرض ، والشمس والقمر ، وهو الذى يولج النهار فى الليل ويولج الليل فى النهار ؛ وهو الذى فلق الحب والنوى ، وهو الذى أمات وأحيا . وهو الذى يطعم ويسقى ، وهو الذى يؤيد بنصره من آمن به وعبده . فهل لك أن تحمى نفسك وأبناءك بالدخول فى دينه ؟ !

فقال : نعم . وآمن هو وأبناؤه . ثم سأله عما فى حصنه ، فقال : مملوء بالأموال والتحف والخيرات .

فسأله : ومن هؤلاء الأسرى المربوطون فى الحبال ؟

فقال : إنهم ألفان من الأعجام ، ومعهم الملكة فخر تاج بنت سابور ملك العجم ، أسرناهم وجئنا بهم وبأموالهم إلى حصننا هذا .

فقال غريب : وهل مسست فخر تاج بسوء ؟ ! .

فقال : لا وحق الدين الذى دخلت فيه ، ولقد جعلت لها قصراً أقامت فيه ومعها جواريها .

فقال : هيا بنا إليها .

ودخل غريب وغول الجبل عليها ، فوجداها جالسةً حزينة باكية ، ونظرتْ إلى غريب فلمحت فى وجهه أمارات الشهامة والرجولة ، فاستعاذت



غول الجبل يهاجم غريباً وجنده

به أن ينجيها من غول الجبل وأبنائه . فقال لها : لا تخافى ولا تحزنى فإنى رادك إلى أبيك آمنة مكرمة .

فقالت : حُييتَ ونعم بالك .

فقال : وكيفَ وقعت فى يد غول الجبل ؟

فقالت : خرجتُ فى فرسان أبى والجوارى إلى دير النار يوم عيدها . فلقينا غولُ الجبل وأبناؤه . وساقونا إلى حصنهم ، وما استطعنا أن نحمى أنفسنا منهم .

فأمر غول الجبل أن يطلق الأسرى من قيودهم، وبشرهم غريب بالعودة إلى بلادهم آمنين . وقال لفخر تاج : انعمى بالمقام فى قصرك أنت وجواريك حتى أرحل بكم أجمعين إلى أبيك .

ثم تركها وجعل يمشى هو وغول الجبل فى وادى الأزهار . فرأى أشجاراً لا تحصى ، ذات أثمار وأزهار . وطيوراً مختلفةَ الأشكال والألحان ، ومياهاً تنسابُ فى خلال الوادى كأنها الفضة الذائبة . فلذ له المقام فيه ، وبعد ثلاثة أيام قال غريب . لأخيه سهيم : خذْ معكَ مائة فارس وارجع إلى أبيك وأملك وقومك وحبب لهم المقام فى هذا الوادى ؛ ثم ارْجع بهم إليه ليعيشوا فيه بقية حياتهم . أما أنا فسأذهب بالملكة فخر تاج وجواريها وفرسانها إلى أبيها . وأما أنت يا غول الجبل فانتظرنا أنت وأبناؤك فى هذا الوادى حتى نرجعَ إليكَ . فصدع كل منهم بما أمر غريب .

٤

أما سابُور ملكُ العجم فلم تعُد ابنتُه إليه فى موعدها، فأرسل إلى الدير من ينقل إليه نبأها ، فقيل له : ما رأينا ابنةَ الملك فى هذا العيد ؛ فرجع من فوره ، وبلغ الملك ما قيل لهُ ، فحزن واضطرب ، وأمر عشرة قواد أن يركب كل منهم ُ فى ألف فارس ، وينتشروا فى الأرض باحثين عن ابنته ؛ فصدعوا بأمره .

وأما غريب فإنه سار إلى سابور ومعه ابنته وجواريها وفرسانها ، وبعد أيام من مسيره رأى غبرةً أمامه ، فبعثَ قائدَ العجم إليها ليأتيه بخبرها ، فلما وَصَل إليهم ، وسألهم عن شأنهم قالوا له :

نحنُ من بنى هطال ، وأميرنا صمصام بنُ الجراح ، وعددنا خمسةُ آلاف ، خرجنا للنهب والسلب . فطارَ قائد العجم إلى غريب بنبئهم هذا ، فنادى فيمن معه : أن احملوا أسلحتكم واستعدوا للقاء هؤلاء الأعداء ، ودارت بينَ الفئتين معركةٌ حاميةٌ جال فيها غريب جولات حاسمة وكان يصيحُ فيهم قائلا : الله أكبرُ ، أعز جنده ونصر، وأذل من جحدَ وكفر ، ثم انكشفت المعركةُ آخرَ النهار عن قتل الصمصام بن الجراح وهزيمة أصحابه ، فباتوا ليلتهم يتساءلون : ما هذا الكلام الذى كلما سمعناه اهتزت قلوبنا وارتعدت فرائصنا ، وخارت قوانا ، ووجدتْ سيوفُ أصحابه سبيلها إلى نحورنا وأجسامنا ؟ ! ثم اتفقوا على أن

يذهبَ عشرةُ فرسان من خيارهم ليسألوه عن كلامه هذا الذى ماسمعوه قط .

استأذن العشرةُ ودخلوا على غريب فى خيمته فقال لهم : لأمر ما جئتم ؟

فقالوا له : آمِنا ليذهب الخوفُ عنا . وأجلسنا لنفضى إليك بما جئنا من أجله .

فقال : أمنتم . واجلسوا ، وتحدثوا بما شئتم .

فقالوا : سمعناك فى المعركة تقولُ قولاً ما سمعناه قط ، وكان وَقعهُ فى قلوبنا أشد من وقع السيوف القاطعة .

فسألهم : ومن إلهكمُ الذى تعبدون ؟ !

قالوا : آلهتنا وَدّ وسواع ويغوث .

فقال : وكيفَ تعبدون أصناماً لا تملكُ لكم نفعاً ولا ضراً ؟ ! نحن نعبد إلهاً واحداً أحداً . خالق الأرضَ والسموات وما فيهن . ونأكلُ من طيبات ما رزق ، وهو الذى أيدنا بنصره ، وهو الذى بيده ملكوتُ كل شىء ، وهو على كل شىء قدير . فكيفَ تعبدون أنتم أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل اللهُ بها من سلطان ؟ !

فقالوا : لقد كنا فى ضلال مبين ، ونريدُ أن نعبدَ إلهكم الذى تعبدون . فماذا نقول أو ماذا نفعل ؟

فقال غريب : قولوا : آمنا بالله واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ، فقالوا . وأسلموا .

فقال لهم : ارجعوا إلى قومكم وادعوهم إلى الإيمان كما آمنتم ، فإن آمنوا سلموا ، وإن أعرَضوا فلا يلومونَ إلا أنفسهم .

رجع العشرةُ إلى قومهم وشرحوا لهم الدين الجديد ، فأضاءت قلوبهم بنوره وآمنوا ، ثم ذهبوا إلى غريب وشكروا له أن كانَ سبباً فى هدايتهم للإيمان ، وقالوا : نحن أتباعك، ولن نفارقك ، فمرنا بما تريد . فأمرهم أن يسبقوهُ إلى وادى الأزهار حتى يرجعَ إليهم من عند سابور ملك العجم . ووصاهم أن يذكروا الله عند لقائهم غول الجبل حتى لا يصيبهم بأذى .

استقبلهمُ غول الجبل ذاكرين ربهم بالحفاوة والإكرام ، وأخبروه عن حالهم ، وأن غريباً هو الذى أرسلهم ليقيموا فى وادى الأزهار . ففرح غولُ الجبل وأبناؤه بهم وغمروهم بإحسانهم .

ورحلَ غريبُ بابنة الملك ومن معها ، فبان له غبارُ بعد مسيره بثلاثة أيام ، فقال لقائد العجم : اذهبْ وتعرفْ لنا شأن هذا الغبار . فرجع إليه مسرعاً وقال : هؤلاء القادمون فرسانُ الملك سابور أخرجهم يبحثون عن ابنته فخر تاج ، فأمر غريبٌ من معه أن ينزلوا فى مكانهم هذا حتى يصل القادمون إليهم ، فضربت الخيامُ ونزلوا فيها منتظرين . وكان طومان قائد فرسان الملك سابور ، فدخل على غريب وحياهُ . وسألهُ عن فخرتاج ابنةَ مليكه فأرسله إليها فى خيمتها ففرحت بلقائه وجعلت تثنى على غريب وأنه جدير بمكافأة عظيمة من أبيها ، وليس بكثير أن يهب له نصف ملكه. ثم استأذنه طومان أن يسبقه ليبشر الملك بقدوم ابنته فقال : اذهبْ وخذ منه البشرى ؛ ووصل طومان فى جنده ، ورحل غريب من بعده إلى مدينة الملك سابور ، وهناك بشره طومان بقدوم ابنته ففرح ومنحه عشرة آلاف دينار ، وجعلَ له مدينة أصبهان

وأعمالها ، وفرحت أمها بنبأ قدوم ابنتها ، ووزعت على الجوارى والخدم العطايا والمنح ، وشاعَ الخبرُ فى المدينة ، فلبست زينتها ، وخرج الملكُ وحاشيته وجنوده ، وجموعٌ من أهل المدينة للقاء ابنته .

ولما التقى الجمعان نزلوا وضربوا الخيام ، ولهجت الألسنةُ بالتهنئة فى كل مكان ، واستقبلَ سابور غريباً فرحاً به ، شاكراً له ، حامداً حسن صنيعه ، وجميلَ معروفه ، ثم ذهبَ إلى ابنته ، وكاد يطيرُ من الفرح بعودتها ولقائها ، فجلس إليها وحدثته بما فعلهُ غريبٌ معها وقالت له : زوجنى منه يا أبى ليكون لك ردءاً وقوة .

فقال أبوها : إن خردشاه ملكَ شيراز وأعمالها قد وهب لك مائة ألف دينار وكثيراً من الحلل الحريرية ، فماذا نحن فاعلون به ؟ !

فقالت : إن لم أتزوجْ من غريب هذا فلست متزوجة من أحد ، وربما ضاقت الدنيا فى وجهى وقتلت نفسى .

فقال : ما قدر لك سيكون .

وتركها وذهب إلى غريب ، وقضى معهُ بقية النهار ، ثم باتوا واستأنفوا عودتهم فى الصباح ، وقد استقبلوا فى المدينة استقبالا كله فرحٌ وغبطة ، وتوالت على غريب الهدايا والمنح من أكابر المدينة وأعيانها . وأقام فى ضيافة الملك سابور منعماً مكرماً عشرة أيام ، ثم استأذن فى الرحيل ، فحلف الملكُ ألا يرحل إلا بعد شهر ، فقال غريبٌ له — وكانَ ذلك فى المجلس العام : للملك إنى فى حاجة إلى الرحيل ، لأنى خطبتُ ابنة من بنات العرب ، ولا ينبغى أن تطول غيبتى عنها .

فقالَ سابور الملك : وأيهما أحسنُ وأفضل ؟ أمن خطبتها أم فخر تاج ابنتى ؟ .

فقال غريب : وأين العبدُ من سيده ومولاه ؟

فقال الملك : إن ابنتى مدينةٌ لك بحياتها وليس لها زوجٌ سواك ، والتفت إلى الحاضرين وقال : أشهدكم على نفسى أنى زوجت ابنتى فخر تاج من ولدى غريب هذا .

فقال غريبٌ : شكراً لكَ ، واقترح ما تشاء من المهر .

فقال سابور : لا أريدُ مالاً ، ولكنى أبغى رأسَ الجمرقان ملك الدشت ومدينة الأهواز صداقاً لابنتى .

فقال غريب : لك ما أردت ، وسأرحل لإحضار أعوانى لأتوجه بهم إلى الجمرقان ، وآتيك برأسه ، وانفض المجلس .

وخاف سابور أن يرحل غريب ولا يعود ، لأنه فى شك من أنه سيغلب الجمرقان ، وظن أن الجمرقان قاتله لا محالة ، فاحتال لتعويقه وصرفه عن الرحيل إلى الجمرقان ، وأقام فى الصباح حفلة لعب بالرماح بين الأبطال والفرسان ، وأخذ غريباً معهُ إلى الملعب . فأعجبه ما شاهد من لعب الأبطال ، ورغب أن يلعبَ معهم فقال للملك : أحب أن ألعب بالرماح مع أبطالك ، على أن تلبسنى ثوباً رقيقاً ، وتعطينى رُمحاً لا سنان له ، وأن تضعَ مكانَ السنان خرقةً مبللة بماء الزعفران ، فإن غلبنى بطلٌ من أبطالك فدمى حل له ، وإن غلبته وضعتُ على صدره علامة من ماء الزعفران وخرج من الميدان سليماً . ففعل الملكُ ما أشارَ به غريب ،

ثم قال لأبطاله بلسانه : من غلب منكم هذا الفارس البدوى فله عندى ما يتمناه .

نزل غريب ميدانَ اللعب قائلا : باسم الله توكلتُ على الله ، اللهم لا عونَ إلا منك . ولا نصر إلا بك . وجعل يغلب الأبطالَ واحداً فى إثر واحد . ويضعُ علامةً فى صدر كل منهم حتى لم يبق منهم أحد . وانفض الحفل وهو فائز منصور ، واستأذن غريبٌ أن يذهبَ ليقضى حاجته . وأراد القدرَ أن يضل الطريق فى رجوعه من قضاء حاجته ، فدخل قصرَ فخر تاج زوجته وهو لا يدرى . فاستقبلته فرحةً مستبشرة وبات عندها حتى الصباح . ثم دخل على الملك فى مجلسه فأجلسه بجانبه ، وحضر الكبراء والأمراء وجعلوا يشيدون بذكر غريب وشجاعته ، وبينما هم يتحدثون رأوا من شباك القصر غبرة لخيل قادمة . فأمر الملك أن يأتوه بخبرها . فقالوا : وجدنا مائة فارس فى قيادة أمير لهم يُسمى سهيم الليل .

فقال غريب على الفور : هذا أخى قادمٌ إلىّ فى حاجة كنت كلفته إياها ، وإنى ذاهب لألاقيه . فخرج إليه فى فرسان من العجم وبنى قحطان ، فتصافحا واعتنقا . وهنأ كل منهما أخاهُ بسلامة اللقاء ، ثم سأل غريب أخاهُ فقال : هل ارتحل القومُ إلى وادى الأزهار ؟

فقال سهيم : لم يكنْ مرداسٌ إلا خائناً غادراً . ولما عرف أنك ملكتَ حصْن غول الجبل ووادى الأزهار كاد يذوب حسرةً وأسفاً ، ولأجل ألا تتزوج من ابنته مهدية رحلَ هو وابنتهُ وأهله وقومه إلى الملك عجيب ليزوجه ابنته مهدية ، ويتخذه ملاذاً وحمى .

فأسف غريب وقال : سأسقيه بعون الله جزاء خيانته وغدره .

وعاد بأخيه وفرسانه إلى المدينة ، ودخل به على الملك الذى أكرم لقاءه . ثم حكى غريبٌ للملك ما حدثه به أخوه سهيمُ الليل ، فقال الملك :

أمرتُ لك بعشرة قواد ، مع كل قائد عشرة آلاف فارس من العرب والعجم لتستعين بهم كما تشاء على من تشاء ممن تحدثهم نفسهم أن يشغبوا عليك ، أو يطمعوا فيك ؛ أو على من تريد أن تنتقم لنفسك منه لإساءة أساء بها إليك ؛ أقدم لك هؤلاء القواد والفرسان وإن كنت أعلم أنك فى غير حاجة إليهم ؛ فإن الله قد وهب لك من القوة والشجاعة وقوة البأس والقدرة على الاحتيال فى الحرب والمبارزة ما يغنيك عن كل معونة ؛ ولكنهم على أى حال يكونون زينة فى الرخاء ، عوناً عند الشدة والبلاء .

قبل غريب ما عرضه عليه الملك ، ولا سيما أن فى نيته أن يتجه إلى مرداس ، وأن يكون له معه شأنٌ بسبب غدره وخيانته والتغرير به ، والقذف به فى المهالك للتخلص منه . وأخذ القوادُ والفرسانُ فى الاستعداد للرحيل فى صحبة غريب ، وبعد ثلاثة أيام خرجَ بهم إلى وادى الأزهار ، وهناك قص على غول الجبل ما كانَ من أمر مرداس ، فقال غول الجبل :

لا تعبأ به ولا بجنوده ولا بمن يلوذ بهم ، واسترح أنت فى هذا الوادى ، وأنا آتيكَ بهم مكتفين .

فشكر له غريب صدق مروءته ومعونته وقال : فلنذهب معاً إليهم . فتركوا فى الوادى ألفى فارس لحمايته ، ورحل جميعهم إلى مرداس عند الملك عجيب .

٥

أما مرداس فإنه قدم هو ومن معه إلى عجيب وعرفه بنفسه ، وأنه جاء ليجيره وينصره ، فقال عجيبٌ :

قد أجرتك : فمن ظلمك ؟

فقال مرداس : فتى يسمى غريباً ، ربيته وكفلته ، وكنتُ قد وجدته رضيعاً فى حجر أمه نصرةَ ، فى غابة سحيقة ، فتزوجت بها ورزقت منى بغلامَ سميته سهيم الليل . وقد أصبحَ غريب هذا بطلاً كأنه الصاعقة ، وقد أرادنى على أن أزوجه ابنتى مهدية ، وهى فتاة لا تصلح إلاَّ لك ، فاحتلت لقتله ، وطلبتُ منهُ رأسَ غول الجبل مهراً لها ، حتى يذهب إليه ولا يرجع . ولكنه غلب غولَ الجبل ، وملكَ حصنهَ وواديه وأصبح من أعوانه . وبلغنى أنه دخل فى دين جديد ، وأخذ يدعو الناسَ إلى الدخول فى هذا الدين ، وأنه أنقذ ابنة سابور وفرسانه من قبضة غول الجبل ، وأرجعها إلى أبيها ؛ وهو الآنَ يملكُ من الأموال والفرسان ما لا حصر له . فخفت منهُ ونزحتُ بأهلى وقومى من الديار وجئنا إليك ، لنعيش فى كنفك وحمايتك .

فاصفر وجه عجيب ، وأزعجه اسم نصرة وقال : وأين أمه نصرة ؟

فقال : إنها معى .

فأمر بإحضارها ؛ فلما رآها عجيب وعرفها قال لها : وأين العبدان

اللذان كانا معك ؟

فقالت : تركانى فى غابة سحيقة . وبقيت بها وحدى ، حتى وضعت ابنى غريباً . ورآنا الملك مرداس ٌ فرحم غربتنا ووحدتنا وأخذنا معه ، ولا أدرى من أمر العبدين شيئاً .

فسلّ عجيبٌ سيفه ، وشقها به نصفين ، وأمر أن تطرحَ فى الخلاء طعاماً للوحش والطير ، وقال لمرداس : زوجنى ابنتك مهدية ؛ فزوجه إياها ، ثم أمر لمرداس بثلاثين ألف دينار مهراً لها . وكان هذا النبأ مثاراً للوساوس فى نفسه .

أما غريبٌ فإنه سار هو وجنوده وأعوانه حتى أشرفوا على بلاد العراق ، فنزلوا بالقرب من الحيرة وكان ملكها يسمى الدامغ ، فأطل من قصره فرأىَ جنوداً من العجم لا حصرَ لهم ُ نازلين بالقرب من مدينته ، فدعا إليه فارساً قوياً من فرسانه يسمى سبعَ القفار ، وقال له : امض إلى هؤلاء الجنود وهات أخبارهم وما يريدون ، ولترجع إلينا من فورك .

فذهب إليهم سبع القفار . وقال لهم : إنى رسولُ ملك هذه المدينة إلى قائدكم .

فساروا به إلى خيمة غريب واستأذنوا له . فدخل عليه . وحيا وقال : إنى رسولُ الدامغ ملك هذه المدينة وأخى الملك كندمر صاحب أرض العراق ، فقال عجيبٌ فى حزن أليم : اذهب إلى مولاك . وبلغه أن صاحب هذه الجنود غريب بن الملك كندمر الذى قتله ابنه عجيب ، وقد جاء ليأخذ بثأر أبيه من أخيه ، فأسرعَ سبع القفار فى العودة إلى

مولاه وقال : صاحب هذه الجنود ابنُ أخيك ، وحكى لهُ ما سمع من غريب .

فقال لفارسه : أحق ما تقوله ؟ !

فقال الفارس : نعم ! وما قلتُ إلا ما سمعت ! !

فركب الملكُ الدامغُ فى حاشيته وذهب إلى ابن أخيه ، وهنا التقيا وتعارفا ، وفرح كل منهما بصاحبه ، ثم قال الدامغ :

إن فى قلبي حسرةً من أخيك الغادر ، وما كنتُ لأستطيع أن فى أحاربه ، لأنى ضعيفُ لا أقدر على ملاقاته .

فقال غريب : ستقر عينك إن شاء الله بأخذ ثأر أبى .

فقال عمه : إن لك عند أخيك ثأرين : ثأر أبيك وثأر أمك .

فقال غريب : وما بال أمى ؟

فقال عمه : قتلها عجيبٌ؛ وقص عليه قصةَ مرداس وابنته ، وهجره أوطانه ، فثارت ثائرة عجيب وأمر بالرحيل ، فاستأذنه عمه أن يتمهل حتى يستعد ويسير معه ، فقال : نفد صبرى ، فهيْ أنت نفسك والحق بى .

شارف غريب وعسكرُه مدينةَ بابل ؛ فحط الرحال ، وضرب الخيام ، وأقاموا فيها ؛ وكتب غريبٌ إلى جمك كتاباً قال فيه : الحمد لله رب العالمين ، من غريب بن كندمر ملك العراق إلى جمك ملك بابل ؛ أما بعد ، فإنى أدعوكَ إلى عبادة الله الواحد القهار ، رب السموات والأرض ، خالق كل شىء ، وهو على كل شىء قدير ، فإذا فرغت

من قراءة كتابى هذا فاترك عبادة الأصنام وأسلم تسلم ، وإن لم تفعل فدونك القتال ، والسلامُ على من اتبع الهدى .

أغلق غريب الكتاب وختمه . وأعطاه قائداً من قواده ، وأمره أن يحمله إلى ملك بابل . فأخذ القائد الكتاب . وأسرع به حتى وصل إلى بابل . واستأذن على ملكها . فأذن له فدخل عليه . وناوله الكتاب . فقرأه ؛ فعقد الغضبُ على وجهه سحابةً سوداء ، ونظر إلى الرسول قائلاً : بلغ صاحبك أن غداً موعد القتال . وأذن لهُ أن ينصرف . وأمر قواده وجنوده أن يعسكروا خارج المدينة لقتال هؤلاء الغزاة المغيرين

وفى الصباح برز إلى الميدان غولُ الجبل طالباً من يبارزه وفى يده شجرة كبيرةٌ يهزها كأنها رمحٌ أو سيف ونادى على أبنائه أن يوقدوا النارَ فى الميدان ، فبرز إليه عملاقٌ من كفار بابل ، فضربه بالشجره ضربة هشمت عظامه ، وأوقعته قتيلاً . ونادى غول الجبل عبيده وقال : خذوا هذا العجل واشوُوه على النار التى أوقدتموها . وائتونى بلحمه سريعاً ؛ ففعلوا وجعل يأكل لحمهَ حتى فرغ ، ورأى جيش جملك ما فعله غول الجبل ، ففزع وأحجم . وحملوا أسلحتهم وفروا إلى المدينة هاربين ، وتبعهم جيشُ غريب ، فدخلوا المدينة ، وأعملوا سيوفهم فيها ، وأمسك غول الجبل عموداً من الحديد وضرب به قصر الملكَ ضربةً هدمت بناءه ؛ فصاح الجنودُ وقالوا : الأمان الأمانَ . فأمرهم رجالُ غريب أن يكتفوا مليكهم ويحملوه إلى غريب فى خيمته ، ففعلوا ووقف القتال .

ولما كان جملك أمام غريب وسمع غول الجبل يقول : سيكون هذا

الملكُ طعاماً لعشائى ، استغاث بغريب أن يجيره ، فقال غريبٌ له : إن أسلمتَ سلمتَ من هذا الغول ، وحقنتَ دمك . فأسلم جمك ونجى نفسه من هلاك محتومُ ، وأخلى غريبٌ سبيله ، فذهب إلى مدينته وعرضَ على قومه دين التوحيد فشرح اللهُ صدورهم إليه وصاروا أعوان غريب وأنصاره . ثم رحلوا إلى مدينة أخرى فألفوها خالية من أهلها . وذلك أنهم سمعوا عن غريب وجيشه فهربوا منها وأخبروا عجيباً ما فعله أخوه فى مدينة بابل ، وأنه قادمٌ إليه ليقاتله . فجمع عجيبٌ ألوفاً مؤلفة من الفرسان ، تأكلُ الرطب واليابس ، لأن الخوفَ من أخيه يملأ صدره ، ورؤياه فى منامه بعد ذبحه أباهُ لا تزال وساوسها تشغل باله . وضربوا خيامهم خارج المدينة يرتقبون الجيش القادم .

نزلَ غريبٌ وجيشهُ أمامَ جيش أخيه ، ثم كتب إليه كتاباً ، وبعثَ به أخاه سهيم الليل . فقرأه عجيبٌ فإذا فيه : من غريب بن كندمر إلى عجيب أخيه ، أما بعد . فقد جئتك لأدعوك إلى عبادة الله وحده . فإن آمنت عصمت نفسك وكنتَ أخى والحاكم فينا ، وغفرتُ لكَ ذنب أبى وأمى . وإن لم تؤمن قتلتك ومسحتُ ملكك ، فاختر لنفسك ما يروقك . والسلامُ على من آمن بالله واتبع هداه . فلما فرغَ من قراءته مزقهُ ورماه فى وجه سهيم ، فغضب سهيم وقال : شلت يدك . وأفل نجمك ، وشالت نعامتك . فأمر عجيبٌ حراسه أن يقتلوه ، فجرد سهيمٌ سيفه ونزل فيهم نزول الصاعقة . فقتل منهم خمسينَ فارساً ، ومَرق من بينهم مروق السهم حتى كان بينَ يدى أخيه . فرآهُ ملطخاً بالدماء وسأله ما باله ؟

فقص عليه ما جرى ، فقالَ : جحد بالنُّذُر ، وأعرض واستكبر ، فحق عليه العذابُ الأكبر .

وفى الموعد المضروب أذَّنَ مؤذنُ الحرب فدارت رحاها . واستعر لظاها . وأطبقَ أوارها ، فتطايرت الرءوس ، وتخطفت المنايا النفوس ، وتهاوت الأبدان ، وسالت الدماء فى الوديان . ودامت الحربُ على أشدها يومين لا تهجع السيوفُ فيهما إلا مدة الليل .

وفى ليلة اليوم الثالث اختار عجيبٌ من أعوانه رجلا ذكياً محتالاً ماهراً يسمى سياراً ، وقال له : إنى ادخرتك لمثل هذه الشدة ، وما أريد منك إلا أن تسخِّر محالك لتسرق غريباً أخى وتأتينى به . فقال ستجدهُ لديكَ حاضراً . وانفلت مستخفياً متنكراً فى زى الخدم والعبيد ، حتى كان بين الخدم المحيطينَ بخيمة غريب ، واضطجعَ معهم للنوم ، ولكنه تناومَ ولم تذق عينه للنعاس طعماً . ولما قلق غريبٌ فى أثناء الليل أحس عطشاً شديداً فطلب كوز ماء . فأسرع سيارٌ وأحضرهُ بعد أن وضعَ فيه بعضاً من البنج . وما انتهى غريبٌ من شربه حتى أخذته غيبوبة عميقة . فلفه فى رداء وحمله وانسل به إلى عجيب ، ووضعه بين يديه وقال : هذا أخوك غريب . وأنشقهُ سيار خلاً فأفاق ووجد نفسه مكتفاً أمام أخيه عجيب . فنظر إليه فى سخرية وشماتة وقال : أضلك الغرور فجئت تطلب ثأر أبيك وأمك . وسألحقك بهما . فمن يطلب ثأرك وثأرهما ؟ ! ! فقال غريب : إن الله هو القاهر فوقَ عباده وهو العزيز الحكيم . وإنى أدعوك ثانيةً إلى الإيمان به لتسلم وتنجو ، فإن أبيتَ

فإن مصيرك إلى النار وبئس القرار ، وما أنا بخائف من سيفك فإن ربي الله ، وما الله بغافل عما يعملُ الظالمون . فضحك عجيبٌ مستلقياً وقال : سأريكَ الآن وربَّك ، ثم أمر أن يحضر السياف والنطع ، فنهض وزير له عاقل مجرب وقال : لا تعجل بقتله حتى يتبين الغالب من المغلوب ، فإن غلَبْنا فهو في قبضتنا نقتلهُ متى شئنا . وإن غلبَنَا نفعنا استحياؤه وبقاؤه ، فاستحياهُ وأبقاهُ مقيداً في خيمته .

هب جيشُ غريب في بكرة اليوم الثالث ، وتفقدوا غريباً فلم يجدوه ، فخشى غولُ الجبل أن يدب الخور في نفوسهم ، ونادى فيهم أن يخوضوا غمرات القتال صابرين متوكلين على ربهم ، وسبقهم إلى الميدان داعياً من يبارزهُ . فتقدم إليه فارسٌ من الأعداء . فضربه بالعمود ضربةً أوقعتهُ على الأرض صريعاً وأمر عبيده فشووا لحمه وأكله ، ففزع جيشُ عجيب واضطربَ . وخافَ هو أن يتسرب إليهم الضعفُ والانحلال فصاح فيهم أن احملوا على هذا الغول ومزقوه . فانهالوا عليه من كل ناحية وكثرت عليه أطراف الأسنة فأصابتهُ بجروح كثيرة ، ورأى جيشُ غريب ذلك فهجموا . واشتعلت نيرانُ الحرب حتى آخر النهار ، ثم رجعت كل طائفة إلى خيامها يرتقبونَ الصباح . وكانت الهزيمة قد بانت في جيش غريب ، وأسر غولُ الجبل وسيق مكتفاً إلى غريب وحبس معه فلما رآهُ داخلاً عليه قال : لا حولَ ولا قوة إلا بالله ، اللهم إنا أخلصنا لك الدين . فانصرنا على القوم الكافرين .

وقال غول الجبل : لا تحزن إن الله معنا ، وإن بعد العسر يسراً .

وقام سهيم فى جيش أخيه وقال : لا يفتن فى عضدكم ما لقيتم اليوم من هزيمة ، فما هو إلا بلاء يمتحن اللهُ به قلوبكم ، فاصبروا وصابروا ، فإن الله مع الصابرين . ثم انتظرَ سهيم إلى منتصف الليل ودخل فى جيش عجيب مستخفياً فى هيئة عبد من عبيده فوجد عجيباً جالساً فى حاشيته ، ودخل إلى شموعهم الموقدة كأنه يصلحها ووضع عليها شيئاً من البنج وخرجَ إلى الخيمة التى بها أخوُه وغولُ الليل فوجد الحراسَ قد أخذهم النعاسُ فقالَ لهمُ : ويلكم أيها الحراس . قوموا وأوقدوُا المشاعل واحرسوا المسجونين ، ثم أوقد هو مِشعلاً وَوضع فيه شيئاً من البنج ودار به حول الخيمة ثم وَضَعهُ بين الحراس وذهب بعيداً ، حتى خدروا وفقدوا الحس والحركة ، فدخلَ على أخيه وَغول الجبل وفك رباطهما وأمرهما أن يتسللا إلى معسكرهما فوراً ، ثم ذهبَ إلى عجيب وحاشيته فوجد البنج الذى وَضَعهُ فى الشموعُ قد أغرقهم فى غيبوبة ثقيلة ، فوضع عجيباً فى رداء وحملهُ إلى معسكر أخيه ، ووضعهُ بين يديه فى خيمته وقال هذا أخوك عجيب ، فأمرَ أنْ يوقظه . فأنشقه الخل حتى أفاق وَوجدَ نفسه مكتفاً بين يدى أخيه غريب ، فأطرق خاسئاً آسفاً . فقال أخوهُ غريبٌ : جردوهُ من ثيابه واضربوهُ بالسياط حتى يذوق الهوانَ والبؤسَ . ولما فرغوا من تعذيبه كتفوُه وقيدوه وحبسوُه ، ثم سمعوُا تهليلاً وتكبيراً فى جيش عجيب . فتبينوه فإذا هو الدامغ عم غريب قدم بجيشه على أعقاب ابن أخيه وَبلغه ما فعلَ عجيبٌ بغريب من الأمر غيلة وغدراً فارتقب قدوم الليل بظلامه وحمل بجيشه على أعداء ابن أخيه مهللين مكبرين فأمر غريبٌ جنده

أن يهجموا على الأعداء مناصرين عمه الذى حضر لمعونته ، ودامت الحربُ حامية مهلكة. وانجلتْ فى الصباح عنْ هزيمة عجيب وجيشه هزيمة نكراء ، ولقى غريبٌ عمه الدامغ فتبادلا التهنئة بالنصر والفوز، وقال لابن أخيه : لعل اللئيمَ الخبيثَ قتلَ فى هذه المعركة ! فقال غريب : إنه محبوسٌ عندي . فتعال نذهبُ إليه. وكان ألمُ غريب شديداً حين رَجعَ إليه ولم يجده . وذلك أن سياراً انتهز فرصةَ ركوب غريب بالليل ليساعد عَمهُ وتسللَ إلى ملكه عجيب وسرَقه. وجعلَ يمشى به فى الخلاء ليبعدَ به عن مواطن الظن إذا ما نفرَ أعداؤه للبحث عنه. وجدا فى السير حتى بعدا وجلسا تحت شجرة تفاح بجوارها ماء ، فأكلا من ثمارها وشربا من مائها . ثم تركَ سيار مليكه عجيباً وغابَ عنهُ مدة من الزمن. ثم رَجعَ إليه ومعهُ جوادٌ سرقهُ من قبيلة عثر بها فى طريقه . فأركبه الجوادَ . وسارَ به إلى عاصمة مُلكه وحكمه . وهناك أمرَ الأطباء أن يداوُوه . فشفى من ضعفه وآثار السوط فى جسمه بعد عشرة أيام . وكتبَ إلى نوابه بالمدائن أن يحضروا إليه استعداداً لقتال أخيه وإبادة جيشه .

أخذ سهيمُ الليل يبحثُ عن عجيب. وذهب إلى العاصمة ظناًّ منهُ أنه هرَبَ إليها ، فعلم كل ما فعلهُ ونقلهُ إلى أخيه وعمه الدامغ . فأمر غريبٌ جيشه بالرحيل إلى العاصمة لقتال أخيه عندها. واستمر سائراً حتى ضربَ خيامه عند العاصمة أمامَ جيش أخيه الذى أعده. ثم بدأت الحرب، وأبلَى فيها جنودُ غريب والدامغ بلاءً حسناً. واشتدت وطأتهم على

جيوش عجيب . وأهلكوا منهم كثيرين . ففروا إلى البيداء هاربين ، وهرب عجيبٌ معهم ُ وفتحت المدينةُ أبوابها للغازين . فأذّن غريب فيهم : أن احقنوا دماءكم واحموا أنفسكم بالدخول فى الدين الجديد فأبى أهلُ المدينة دعوته وآمنوا جميعاً . وجلسَ غريبٌ على عرش أبيه . وتقدم إليه الكبراءُ والوزراءُ والقادة مسلمين طائعين ، ثم أمرَ بالبحث عن عجيب فلم يجدوه ، وسألَ عن مرداس وابنته فقيل إنهُ خافَ وهربَ إلى الجبل الأحمرَ ، فأرسل إليه ابنهُ سهيم الليل فلم يجده . ولكنهُ وجد شيخاً كبيراً فسأله عنه فقال : كان مقيماً هنا . ولما سمعَ أن عاصمة عجيب سقطت فى يد غريب رَحلَ خائفاً ، وسار فى تلك البرارى إلى حيثُ لا أعلمُ له سبيلا . ولم يسكت غريبٌ عن طلب عجيب أخيه فأرسلَ الجواسيسَ فى كل مكان للبحث عنهُ إلى أن يجدوه .

٦

خرج غريبٌ للصيد ومعه مائة فارس . وأعجبهم واد فيه زرعٌ وماءٌ ، فباتوا فيه ، وفى الصباح سمعوا جلبةً تتجاوبُ أصداؤها فى جنبات الوادى ، فركب سهيمُ الليل جواده ومرق كأنه السهمُ إلى مبعثها ، فعلم أن الجمرقان وأعوانه قتلوا مرداساً ونهبوا أموال حيه وسبوا أهله نساء وأولاداً ، وتركوا الحى ينعى قومه ، وهم بفرحهم يتصايحون .

لم يطق غريبٌ صبراً بعد أن جاءه سهيم الليل بنبأ قتل مرداس أبيه ؛

فزحفَ بفرسانه على الجمرقان ومنْ معه . وأبى إلا أن يبارزه الجمرقان ؛ وكان قوياً مهيباً . وفارساً عنيداً .

برز الجمرقان إلى غريب وهو على يقين أنه قاتلهُ أو آسره فى طرفة عين ؛ وغفلَ عن القدر . وأنّ يد الله فوق يده . وأنه قابضٌ على ناصيته . فما كادا يلتحمان حتى صرعهُ غريبٌ ؛ وساقه أسيراً إلى جماعته ؛ وهجم قوم الجمرقان على فرسان غريب يستخلصونه من أيديهم ، فما وَجدوا إلا قتلاً وتشريداً وفر من سلم منهم إلى ديارهم ، ينشرون فيها نبأ هزيمتهم . وأسر الجمرقان سيدهم .

وأحضر غريبٌ الجمرقان مقيداً بين يديه . وسأله : منْ إلهك ؟

فقال الجمرقان : إلهى من عجوة وسمن وعسل . وربما أكلته وصَنعتُ غيره .

فضحك غريبٌ حتى بدت نواجذه . ثم قال : ما أسفه أحلامكم ! ! أتعبدُ منْ بيدك صَنعتهُ . وإذا جعت أكلته . ثم تقطع السبيلَ على عباد رب العالمين ؟ ! !

فقال : ومنْ رب العالمين ؟ ! وأين يكون ؟ !

فقال غريب : رب السموات والأرض . ورب كل شيء ؛ لا تدركه الأبصار . وهو يدركُ الأبصارَ . وهو اللطيفُ الخبير . آمنا به ؛ وصدقنا برسله ؛ فأيدنا بنصره ، وثبتَ أقدامنا فى كل معمعة . فهو الذى يعز من يشاء . ويذل من يشاء . بيده الخير . وهو على كل شيء قدير .

فوجل قلبُ الجمرقان . وأضاء بنور من صدق ما سمع ، وأبدى رغبته فى عبادة رب العالمين . فقال له غريب :

قل : آمنت بالله وحده .

فلما قالها أمر بفك قيوده . وجلس بينهم فى عصمة من إيمانه وكأنه أحدهم .

وتردد فى أسماعهم حينئذ جلبةُ فرسان قادمين . فانفلت سهيم الليل إليها ، ثم رجع إليهم يخبرها فقال : قومُ الجمرقان آتون للحرب واستخلاصه .

فقال غريبٌ : اذهبْ يا جمرقان إليهم . وادعهم إلى الإيمان . ليعصموا منا دماءهم وأموالهم . فإنْ أبوْا أذقناهمُ لباس الخوف والفناء .

فلما ذهب إليهم ماجوا فرحاً بلقائه ، وهنأوه بسلامته . وشكرهم على وفائهمْ وحكى لهمْ قصة الدين الجديد ، ثم قال : من تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فلا يلومن إلا نفسه . فقالوا : لا نكون إلا معك ومنك وإليك . وقد آمنا بالله وحده . فسر بنا إلى حيثُ تشاء .

قدم الجمرقان بهم إلى غريب . وجددوا أمامه إيمانهم ، فقال لهم : ربحت تجارتكم . وفاز سعيكم ، فارجعوا إلى أحيائكم وانشروا الإيمان بين ربوعها . فقالوا :

لا نفارق صحبتك . وسنرجعُ إلى الديار ونأتى بأهلنا وأموالنا إليك .

فقال غريبٌ : اصحبهم يا جمرقان إلى الأحياء . ثم اسبقنى بهم وبمن معهم إلى العاصمة ؛ ففعلوا ما أمروا به . وأكرم مثواهم فى العاصمة ،

وجعل الجمرقان قائد جيش من قوته .

ولما رَجعَ غريبٌ إلى العاصمة وجد العيون والجواسيسَ الذين بعثهم من وراء أخيه فأخبروه أنه عند الجلندر بن كركر صاحب مدينة عمان وأرض اليمن ، فجعل عَمهُ الدامغَ نائباً عنه فى العراق . وخرج هو فى ثلاثينَ ألفَ فارس إلى عمان وأرض اليمن .

كان الجلندر زوجاً لابنة عم عجيب . فلما قدم عليه هو وجماعته فى بؤس الهزيمة . ومذلة الطرد والهرب — حكى لهُ ما أصابهُ من غريب أخيه وقال : إنه يبطل عبادة الأصنام والأوثان ويدعو إلى الإيمان والتوحيد . فقال الجلندر : سأبطل بسيفى دعوته ، وأشتتُ شمله ؛ وأمر وزيره جوامردَ أن يسيرَ إليه فى سبعين ألف فارس . وأنْ يرْجعوا بغريب وأتباعه أسرى ليذيقهم ألوان العذاب قبل أن يسقيهم كئوسَ الموت . فصدع الوزير بأمره . وركبَ هوَ وجيشه الطريق إلى غريب .

وبعدَ مسيرة أيام سبعة كان هو وجيشهُ فى واد طابَ هواؤه ، وازدانت أرضهُ بأشجاره ومياهه . فعدا بجواده . وسبقهم بالمسير فيه وحده ، وكانَ الجمرقان قد سبقَ جيشه إلى هذا الوادى ؛ فلقى وزيرَ الجلندر سائراً فقالَ له : قف يا شيخَ العرب . من أنت ؟ وإلى أين تذهب ؟

فقالَ : أنا جوامرد وزير الجلندر بن كركر صاحب عُمان وأرض اليمن ؛ ومن خلفى جيشٌ عدته سبعونَ ألفاً . ونحنُ ذاهبون إلى غريب لنعود به وبأتباعه مكتفين .

فقال الجمرقان : ولكن غريباً ذو دين قويم وسطوة تخشى .

فقالَ : مهما تكن قوته فلن يهمنى أمرُه .

فقالَ الجمرقان : ولكن غريباً أميرى وسيفى فى طاعته .

فقالَ : حينئذ فأنتَ أولُ أسير أو قتيل . فهجم عليه الجمرقان وشقه بسيفه نصفين . ثم انقلبَ إلى جيشه وأخبرهم بما فعل وبقدوم أتباع الوزير لقتالهم ؛ ثم جعلهم فرقاً من حول الوادى . وقال لهم : إذا توسط جيشُ الجاندر الوادى . فانقضوا عليهم من كل ناحية صائحين : الله أكبر . . . معلنين فيهم قتلَ جوامرد قائدهم .

ابتلع الوادى جيشَ الجاندر . وانقض عليهم جيشُ الجمرقان من كل ناحية ؛ فكانوا كاللقمة فى الفم . تطحنها الأضراسُ ويلوكها اللسان . وقتلوا منهم كثيراً . وأسروا منهم ألفاً أو يزيدون ، فدخلوا فى الدين الجديد . فأكرم الجمرقان أسرهم؛ ونجا منهم منْ لاذ بالفرار والهرب . وأرسل الجمرقان الأسرى إلى غريب بعاصمة ملكه ، فاغتبط ، وحمد ربه . ولبث غولُ الجبل ومَعهُ عشرون ألفاً ليدركوا الجمرقان ، وينضموا إليه يقاتلون معه .

وَصلَ الهاربوُن إلى الجاندر . وعرف منهم أنهم غلبوا على كثرة عددهم وقلة أعدائهم ؛ فثارَ ثورة المجنون وأمرَ بضرب أعناق الهاربين ، وكانوا جميعهم ضحيةَ ثورته الحمقاء . ثم نادى ابنه القورجان وأمرَه أن يقود مائة ألف فارس إلى العراق . ليجعله خراباً ، ويتركه سكناً للبوم والغربان .

وبعدَ اثني عشرَ يوماً من مسير القورجان وجيشه رأوا غبار جيش من بعيد قادم إليهم . فبعث إليهم من يتبينهم فقيلَ له : جيش من العراق . وعلى رأسه الجمرقانُ الذ قتل الوزيرَ وهزم جيشه .

تراءى الجيشان فنزل كل في مكانه وضربوا خيامهم واستعدوا للقتال ، وأرسلَ الجمرقانُ جواسيسه إلى جيش القورجان ليقف على خططهم ، فسمعوه يقول : إذا جاءَ الثلثُ الأخيرُ من الليل فابغتوا هذه الشرذمة القليلة من أهل العراق ودوسوهم بخيلكم ؛ فنقلوا هذه الخطة إلى الجمرقان ، فقال لأبطاله وقواده : إذا أقبلَ الليلُ ونام الأعداء ، فابغتوهم بخيلكم وأسلحتكم في مضاجعهم . فإذا هبوا من نومهم ، ولجأوا إلى أسلحتهم ، فاتركوهم يضربُ بعضهم بعضاً .

وفي ضوء الصباح وجد القورجان وجيشه يأكل بعضُه بعضاً ، ووجدوا أهل العراق على خيولهم يرتقبون فناءهم بأيديهم وأسلحتهم ، فوقف القتال ، وأسفوا على من قتل منهم . وكان يناهز ثلثهم ، وعلموا أن العراقيين كانوا أعظم مكراً وتدبيراً .

وأرادوا أن يهجموا على الجمرقان . ولكنهم رأوا غبرة تنبيء عن جيش مقبل ، فانتظروا حتى يبين لهم أمره .

كان القادمون مدداً من العراق يقوده غول الجبل ، فانضموا إلى جيش الجمرقان . وأوقدوا نيران حرب صَلَى أعداؤهم سعيرها ، ولولا أن النهارَ قد انتهىَ وذهبتْ كل طائفة إلى مستقرها لقضت عليهم فناء وهرباً .

وفى الغد برز الجورقان إلى الميدان وصدره يغلى غيظاً مما أصاب جيشه فى أمسه ، ونادى من يبارزه من جيش العراقيين ، فتسابق إلى مبارزته الأبطال طامعين أن يقتلوه ليولى جيشه الأدبار ، ولكنه أسر سبعة منهم تباعاً ، ولكن الجمرقان برز إليه وثأر لهؤلاء السبعة بأسره وسبيه ؛ فثارت الحمية فى صدور أتباعه وجنوده ، وهجموا على العراقيين بخيلهم وأسلحتهم هجمة ينتظرون من ورائها خلاصه وعودته ، ولكن أين هؤلاء الذين يحرصون فى القتال على حياتهم والنجاة بأبدانهم من هؤلاء الذين يحرصون على الموت والفوز بإحدى الحسنيين ، كرامة الدنيا أو سعادة الآخرة ؛ فمزقهم المؤمنون شر ممزق ، وفروا من وجوههم مخلفين وراءهم مغانم كثيرة ، كانت للمؤمنين رخاء وغنى .

ودعا الجمرقان الجورقان بن الجلندر إلى التوحيد فأعرض فى إباء ساخر ؛ فذبحه الجمرقان ونفض يديه من الانشغال به ، ثم جمع الجموع وقادهم إلى مدينة عُمان .

كان الهاربون قد سبقوه إلى الجلندر وبلغوه نبأ هزيمتهم المنكرة وقتل ابنه ، فنزل عليه النبأ نزول الصاعقة ، والتفت إلى عجيب غاضباً وقال : ذلك ما أفدته من قدومك المشئوم ، وطلعتك المظلمة ، ولئن لم أنتصر على هؤلاء الأعداء لأصلبنك فى جذوع الشجر ، ولأقتلنك شر قتلة . إذ كنت سبباً لهذه المحنة التى خسرت فيها ابنى وجنودى .

فاغتم عجيبٌ ، ولبث خائفاً على نفسه ، يترقبُ فرصةً للفرار والهرب ، ولما جاء الليلُ خلا بأتباعه وقال لهم :

إن الجلندر ذاب قلبه . وانحل ثباته . واصفر وجهه . حينما رأى جيوش العراق ، و بقاؤنا عنده متلفة لأنفسنا ومهلكة . والاستعانة بالعاجز حمق وجهالة . فعلينا أن نتسلل فى ظلام تلك الليلة هاربين إلى آل يعرب ابن قحطان فهم أشد قوة وأكثر جنداً . فأطاعوا رأيه . ولاذوا بالظلام هرباً .

وكان الجلندر قد أمر بتعبئة الجنود من كل صوب وناحية ، فاجتمع لديه عدد كثيرٌ وهم أن يرحل بهم . ولكنه وجد جنود العراق قد عسكروا قريباً من المدينة . وباتوا الليلة التى أعقبتْ قدومهم . وفى الصباح كان سعدانُ الغول فى ميدان القتال طالباً مبارزة منْ أراد الخروج من دنياه . فطمع فيه بطلٌ من أبطال الجلندر فقتله سعدانُ الغول . وأمر أن يُشوى لحمه . ثم أكله . وجيش الجلندر فى دهشة من هذا الفارس الذى يشوى لحم فارس ويأكله . ورغب فرسانُ الجلندر أنْ يتسابقوا إلى قتل هذا الغول الإنسانى لينالوا فخر قتله . ولكنهم كانوا يتسابقون إلى الموت . وبلغ عددهم ثلاثين ، ولم يجسر واحدٌ من الفرسان بعد ذلك أن يخطو خطوةً إلى لقاء سعدان الغول . فأمر الجلندر جيشه بالهجوم العام على سعدان وجيشه .

التحم الفريقان وثقلتْ وطأةُ الحرب على الكافرين . ولكن السهام تكاثرت وتزاحمت ، وتكسر بعضها على بعض فى جسم حصان سعدان الغول ، فوقع صريعاً . وسقط سعدان من فوقه . وانهال الأعداء عليه ، فأخذوه أسيراً ، ثم فصل الطائفتين بعضهما عنْ بعض قدوم الظلام ،

وبات جيش الجمرقان حزيناً على سعدان الغول . أما الجلندر فإنه فرح بأسره فأحضره بين يديه وقال : يا كلب العرب . يا حمال الحطب ، من قتل ابنى ؟

فقال : قتله الجمرقان . وأنا شويت لحمه وأكلته ؛ فاغتاظ وأمر أن يضرب عنقه .

ولما أقبل عليه السياف تمطّى فى رباطه فقطعه . وخطف السيف من يد السياف وأطار به رأسه . فرأى الجلندر ذلك فهرب . وانفلت سعدان كأنه قضاءٌ نزل . فجعل يقتل من يجده فى طريقه يحاول تعويقه حتى مرق منْ بين جموعهم وخيامهم . وسمع العراقيون حركة وجلبةً فى جيش اليمن فظنوا أن مددا جاءهم . وارتقبوا مصير هذه الجلبة وهمْ فى حذر وحيطة . وإذا سعدان الغول مقبل عليهم . فأذهب حزنهم وأشرقت بالفرح وجوههم . وقص عليهم نبأ عودته فائزا . وبات الجلندر بين الغيظ من إفلاته . والفرح بسلامته من يده . وحضر إلى جيش العراقيين فى هذه الليلة غريب على رأس مدد لا يستهان به . فأرسل إلى الجلندر كتاباً قال فيه :

إنى أدعوك إلى الإيمان بالله وحده وترك عبادة الكواكب التى هى خلقٌ من خلق الله القادر المقتدر . وآمرُك أن ترسل إلينا عجيباً الغادر الخائن . وإلا فقد حق عليك وعلى قومك وديارك الهلاك والتدمير .

فلما قرأ الكتاب قال لسهيم الليل الذى جاءهُ به : بلغ أخاك أن عجيباً وأتباعه هربوا فى جنح الظلام . ولا نعلم أين ذهبوا ، وبلغه

أنى لن أصبأ عن ديني ودين آبائي ، وغدا يفصلُ الحسام بيننا .

وفى الصباح كان الجيشان كالبحرين يلتقيان باغيين، حتى غربت الشمس ، فسكن كل فريق فى مستقره ومنزله . وفى منتصف الليل تنكر سهيمٌ وذهب إلى خيمة الجلندر ووضع أمام أنفه قطعة من البنج فشمها حتى خدر ، وأخذته غيبوبه ثقيلة ، ثم حمله وتسلل إلى جيشه ووضعه أمام غريب أخيه ، وقال : هذا خصمك الجلندر ؛ وحكى لهُ كيف أحضره .

ولما أفاق الجلندر من غيبوبه وجد نفسه بين يدى غريب وأعوانه، فاعتذر إليه وقال :

ما أوقعنا فيما نحنُ فيه من العداوة والحرب إلا أخوك عجيبٌ ، وقد فعل بنا فعلته هذه وهرب إلى حيث لا نعلم لهُ مذهباً ولا مستقرا .

فأمر غريبٌ باعتقاله والمحافظة عليه إلى وقت آخر. أما الجمرقان فإنه أمر أتباعه أن يأخذوا أسلحتهم ويسترقوا الخطا إلى أن يحيطوا بالأعداء وهمْ نيامٌ ، فإذا سمعوا تكبيره ، رددوا التكبير فى أصْوات عالية تملأُ الوادى ، فإذا صحا الأعداء ظنوا أن سيوفنا تعمل فيهم ، فقاموا إلى سيوفهم وجعل يضربُ بعضهم بعضاً ، وحينئذ لا يأتى الصباحُ حتى يكونوا قد أهلك بعضهم بعضاً .

قال الجمرقان لأتباعه ، فإذا ماج جيشُ الأعداء واضطربوا وتضاربوا بالسيوف تحت قبة الظلام ، فلنذهب نحنُ إلى المدينة ونملكها ونقفُ على أبوابها ، وإذا أشرقت الشمسُ وهجم جيشنا عليهم وفروا من

وجوههم إلى المدينة طردناهم بسيوفنا ،وإذ ذاك لا يجدون منجاةً إلا أن يتفرقوا هاربين فى الصحراء ، وبذلك نقضى عليهم ونمتلك مدينتهم .

وكذلك فعلوا وامتلكوا المدينة ، وأعجب غريبٌ بتدبير الجمرقان وخطته ، فجعله حاكماً لها . أما الجلندر فإن غريباً عرض عليه الإيمان ليحقن دمه ، فأعرض ونأى بجانبه ، وكان مصيره الموت الأليم .

٧

وأقاموا فى المدينة عشرة أيام رأى غريبٌ بعدها فى منامه كأنه فى واد فسيح فانقض طائران جارحان لم ير أضخم منهما ، ففزع منهما ثم انتبه ، فقص رؤياه على سهيم أخيه فقال لهُ : عدوقوى يطلبك فاحذره .

وأحس غريبٌ فى الصباح ضيقاً فى صدره ، وحدةً فى مزاجه ، فرغب أن يسير فى الخلاء ليروح عن نفسه ، وأبى أن يصحبه أحدٌ غير أخيه سهيم ، وانتهى بهما السير إلى واد كثير الأشجار والأطيار ، فجلسا تحت شجرة من أشجاره ، ثم اضطجعا ليستكملا راحتهما ؛ فغلبهما النعاس وناما ، فجاءهما ماردان : أحدهما رأسه رأس كلب ، والآخر رأسه رأس قرد ، وطال جسمهما كأنه النخلة ؛ يكسوهُ شعرٌ كشعر أذناب الخيل؛ ولهما مخالبُ كأنها مخالبُ الأسد ، فحمل أحدهما غريباً ، وحمل الآخر سهيماً ، وطارا بهما وارتفعا حتى كانا فوق السحاب ، ولما استيقظا من نومهما وجدا أنفسهما فى الجو على كاهلى

هذين الماردين . فقالا :

لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

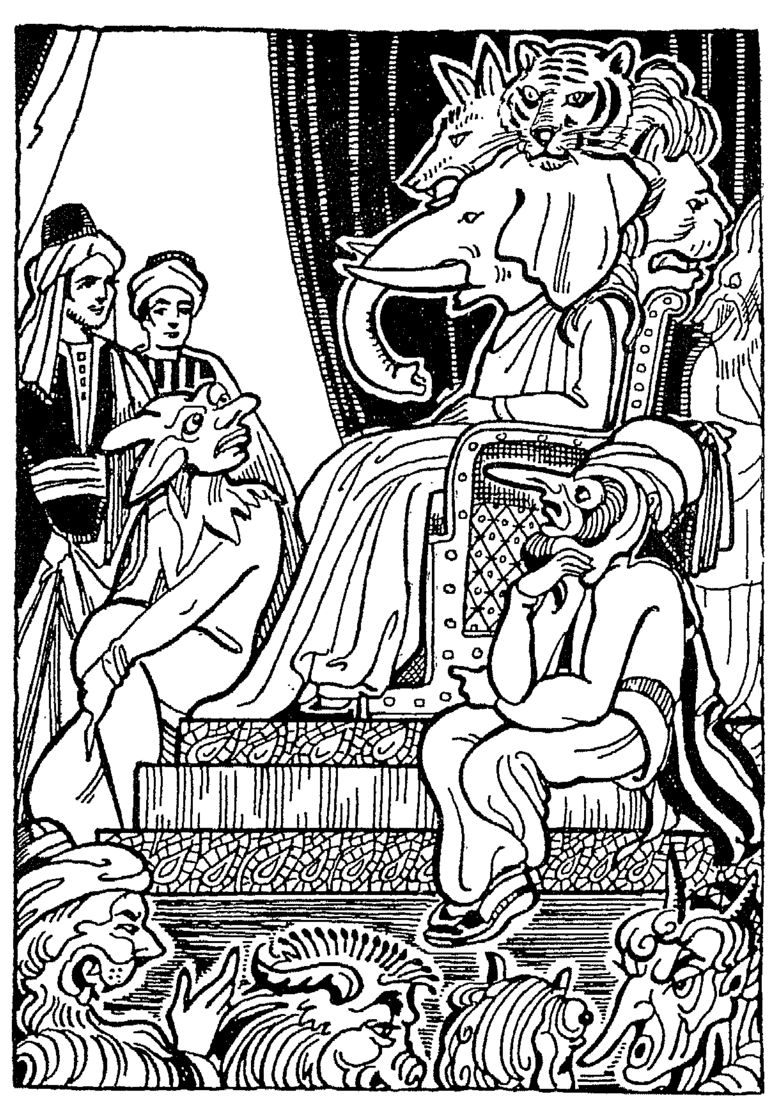
وبيانُ هذا الخطف أن مرعشا – ملك من مُلوك الجن – أحب صاعقٌ ابنه جنية تسمى نجمة . وكان صاعق ونجمة على شجرة من أشجار الوادى فى صُورة طائرين . فضربهما سهيم وغريب بسهم فجرح صاعق . فحملته نجمة وطارتْ به ووضعته أمام قصر أبيه . فنقلهُ الخادمُ إليه فحزن وسأله : من فعل بك هذا يا صاعق ؟ فقال : رجلان بوادى العيون . ثم شهق شهقة مات على أثرها . فأمر الملك مرعش الجان أن يأتوا إليه بكل من يجدونه فى وادى العيون . فأحضر المارادن غريباً وسهيماً إليه . فوجداه ضخم الجثة فارع الطول . له أربعة رءوس مختلفة : رأس أسد . ورأس فيل . ورأس نمر . ورأس ذئب . فقال لهما :

قتلتما ابنى . وأحرقتما كبدى ! !

فقال غريب : والله الذى لا إله إلا هو . رب السموات والأرض ورب كل شىء . ما رأينا إنساناً بعد خروجنا من المدينة .

فقال : كان فى صُورة طير على شجرة بوادى العيون فرميتماه بسهم قتله .

فقال غريب : إن بالوادى طيوراً لا حصر لها . وصيدها مباحٌ لمن يريد . وكيف نعرف أنهُ طير أو غيرُ طير ؟ ما ذا بيننا وبين ابنك حتى نقتله ؟ ! وهلْ تعقل أن نقتل أحداً فى مكان ثم نطمئن على أنفسنا وننام فيه ؟ !



غريب وسهيم أمام مرعش ملك الجان

فقال لأعوانه وخدمه : ائتونى بربّى وإلهى .

فأتوه بتنور أشعلوا فيه ناراً ذات لهب أخضر فأزرق وأصْفر ، فسجد لها الملك وجميع الحاضرين إلا غريباً وسهيماً فإنهما جعلا يذكران الله ، فلما رفعوا من السجود رءوسهم قال الملك : لم لا تسجدان ؟ !

فقال غريب : إنما السجود لله رب العالمين ، ربكم ورب آبائكم الأولين .

فغضب الملك وقال لأعوانه : ألقوهما فى النار ، وكانوا أمام القصر . فسقطت شرفة من شرف القصر على التنور فأطفأت ناره . فقال الملك : إنكما ساحران وأطفأتما النار بسحركما .

فقال غريب : ما بنا من سحر ، ولكن الشيطان أضلكما عن سبيل الله فعبدتم ناراً لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرًّا .

فغضب الملك وقال : سألقيكما فى النار لتعرفا ما لها من ضرر وأذى .

وأمر الخدم أن يوقدوا ناراً حامية ، ويلقوهما فيها . فجمعوا حطباً كثيراً ، وأشعلوا فيه النار ، ولكن الله أرسل عليهم سحابة أمطرتهم ماءً دافقاً كأنه من أفواه القرب ، فأطفأت نارهم ، فخاف الملك ، وخلا فى القصر برجال حاشيته ، وقال لهم : ماذا ترون فى هذين الرجلين ؟ !

فقالوا : يبدو لنا أن الله الذى يعبدونه حق ، وأن عبادتنا للنار بُطلانٌ وضلال .

قال الملك : حينئذ أصبح من الحق أن نعبد الله الذى يعبده هذان الرجلان .

قالوا : إنه الحق المبين ، وإن آمنت به فنحن به مُؤمنون .

فأمر الملك بإحضار غريب وسهيم . وأجلسهما ، وقال : لقد آمنا بربكم . فماذا نقولُ حتى نكون على دينكم ؟ !

قال غريب : قولوا آمنا بالله الواحد القهار . فقالوها جميعهم . وأعلن الملك سروره بهما إذ أرشداهم إلى دين الحق وإلى صراط مستقيم.

اطمأن غريبٌ وحكى لملك الجن قصة عجيب أخيه وقال : وإنى خائفٌ على قومى وجندى .

فقال الملك : استرح أنت وسأبعث منْ يأتيك بخبر قومك وجندك ، ثم دعا بماردين : هُما الكيلجان والقورجان . وأمرهما أن يذهبا إلى اليمن ويأتياه بخبر قوم غريب وجنده . فطارا إلى حيث أمر الملك .

أما جنوُد غريب فقد عرف كبراؤهم من خدمه أنه خرج فى السَّحَر هو وسهيم أخوه ولم يرجعا ، فبعثوا من خلفهم من يقتفون آثارهم ، فوجدوا فى وادى العيون جواديهما . ولم يعثروا فيه عليهما . ورجعوا بهذا الخبر إلى كبراء الجيش . فساورهم الخوف عليهما ، ونشروا العيون والجواسيس فى كل مكان وفى كل حى للبحث عنهما والوقوف على خبرهما .

وبلغ عجيباً نبأ فقد غريب أخيه . فاستبشر وظن أن الدنيا أقبلت عليه بعد إدبارها ؛ وأشار على آل يعرب بن قحطان الذين أجاروه أن يمدوه بجيش من عندهم ليغزو جند أخيه بمدينة عمان فى هذا الوقت الذى فقدوه فيه ولم يعرفوا له خبراً .

قاد عجيبٌ مائتى ألف مقاتل إلى مدينة عمان . وهناك أوقد نار حرب أبلى فيها المؤمنون بلاءً حسناً ، ولكنه أرغمهم على الاعتصام

بالمدينة . فحصرهم فيها ، يرتقبون من الله المعونة والخلاص من تلك الضائقة .

وجد الماردان جنود غريب محصورين فى مدينة عمان ووجدا أعداءهم مُحيطين بها إحاطة السوار بالمعصم ، فأعملا فيهم السيف ، ورآهما الكفارُ يتطايرُ الشرر من أفواههما وعيونهما ، وهما يصيحان بالتكبير والتهليل ، وأنهما من غلمان الملك غريب صديق مرعش ملك الجان ، فظن الكفار أن العفاريت أطبقت عليهم من كل مكان فأسرعوا بالهرب والفرار . وكان أولهم وأسبقهم عجيبٌ ، ولم ينج منهم بالهرب إلا خمسون ألف مقاتل . ثم دخل الماردان المدينة وأخبرا أهلها أن غريباً وأخاه سهيا ضيفان عند مرعش ملك الجان وسيحضران إليكم قريباً ، أما أعداؤكم فقد أبدناهم ولم ينج منهم بالهرب إلا قليل .

ففرحوا بهزيمة أعدائهم والاطمئنان على ملكهم غريب وأخيه ، وفتحوا أبواب المدينة ، وأقاموا فيها آمنين .

ورجع الماردان إلى ملكهما وأخبراه بما فعلا فاطمأن غريبٌ وأخوهُ وشكر لهما حُسن صنيعهما . ثم عرض الملكُ على غريب أن يزور به أرضه ومدينة يافث بن نوح فرضى شاكراً .

ركب الملكُ مرعشٌ وغريبٌ وسهيم ومعهم ألف مارد قاصدين مدينة يافث ، فاستقبلتهم بمظاهر الحفاوة والإجلال ، ووقف الملك مرعشٌ يُبطل فى أذهانهم عبادة النار ويرغبهم فى عبادة الله الواحد القهار ، فقال : من صفات الإله الحق القدرة التى لا يعجزها شىء

فى السموات ولا فى الأرض ، وقد وجدت النار لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرا، فنحنُ نشعلها ونحن نطفئها متى شئنا ، ومن سفه الرأى أن نترك عبادة الإله القادر إلى عبادة شىء هو من صنع أيدينا ، وهو خلقٌ من خلق ذلك الإله القادر المقتدر . وقد آمنت بالله الواحد ، وأدعوكم الآن إلى التوحيد وعبادة الله الذى لا تدركه الأبصار وهو يُدركُ الأبصار وهو اللطيفُ الخبيرُ ، فمن آمن فقد نجا من عذاب الله ، ونال رحمته ورضوانه ، ومن كفر وعصى فقد استحق اللعنة والطرد من جنة الله التى وسعت عباده المؤمنين . فوجدت هذه الدعوة مكان القبول من نفوسهم وآمنوا جميعهم .

دخل مرعشٌ وغريبٌ قصر يافث فوجد كرسى ملكه من المرمر، رُبطت أجزاؤه بقضبان من ذهب ، وفرش بالحرير المزخرف، ودخل به دار السلاح فرأى غريبٌ سيفاً معلقاً فى وتد من ذهب ، فسأل مرعشاً : لمن هذا السيف ؟

فقال : هذا سيف يافث بن نُوح صنعهُ الحكيم جردوم ، وعليه نقوش سحرية . وأسماءٌ عظيمةُ ، ويسمى الماحق ، لأنه ما نزل على شىء إلا محقهُ . يخشاه الإنس والجن ، من أمسكه فهو فى قوة الجيش وأعظم .

فقال غريبٌ : هل لى أن آخذه وأنظر فيه ؟

فقال مرعش : نعم . لا أحد يمنعك .

فمد غريب يده وأخذه من مكانه فأعجبه ، وأبدى رغبته فى

الاستيلاء عليه لنفسه . فقال مرعش : إنهُ مرصودٌ على من يستطيع نزعهُ من مكانه . وقد حاول كثيرٌ مثلك أخذه فلم يستطيعوا . فحاول أن تأخذه فقد تكون الموعود به ، فتقدم غريب وقبض على السيف وجذبه فخرج فى يده ، ففرح غريب بذلك وفرح الملك مرعش لفرحه ، وقال له : خذه ، فهو لك أعظم قوةً فى مواقف الدعوة إلى دين الله . ثم طاف مرعش فى أنحاء المدينة ونواحيها وبساتينها وأوديتها ، وعاد به عند المساء وباتوا فى قصر يافث ، ثم استأذنه غريبٌ أن يعود إلى قومه لأنهُ على قلق من أجلهم ، فقال مرعش : لا آذنُ لك إلا بعد شهر ، فقد كنت السبب فى هدايتنا إلى دين التوحيد وعزته وخيراته ، ونحب أن تمكث فينا طويلا . فرضى غريبٌ شاكراً .

مرض سهيم وضعف وأحب أن يعود إلى مدينة عمان ، فأذن له ، وأمر الملك مرعش المردة أن تحمله وتحمل الهدايا التى أعدها لغريب ليأخذها معه عند سفره ، وكانت أعدالا مملوءة بأنواع الجواهر والذهب والفضة والماس والمسك والعنبر والمنسوجات الحريرية وحلتين فاخرتين لغريب وأخيه ، وتاج مكلل بالدر والجواهر والماس لغريب ، فحمل المردة سهيما ومعه هذه الهدايا وطاروا به إلى عمان . وكان غريب قد تهيأ للرحيل مع أخيه بعد انقضاء الشهر ولكن عوّقه أمرٌ طارئ وجيش باغت من المردة عُدته سبعون ألفاً . يقودهمُ ملكهم برقان .

كان برقان هذا صاحب مدينة العقيق وقصر الذهب ، وهو ابنُ عم الملك مرعش ، يعبد النار هو وقومهُ ، ولما آمن مرعشٌ وآمن معه قومهُ

كان من بينهم مارد أبطن الكفر وأظهر التوحيد ، ذهب خفية إلى برقان وحكى له قصة توحيده وتوحيد قومه فقال : لا بد من قتل ابن عمى مرعش وغريب الذى خدعه وغره حتّى ترك عبادة النار .

سار برقانُ فى سبعين ألفاً من المردة . ونصب خيامه فى واد مشرف على مدينة ابن عمه مرعش ، ورأى مرعش هذه الجنود النازلة أمام مدينته . فعسكر هو أيضاً خارجها ، وأصر غريبٌ ألا يرحل حتّى يقاتل مع مرعش إن كانت هناك حاجة إلى القتال ، ورضى بعودة أخيه سهيم ومعه الهدايا لضعف أصاب جسمه .

بعث مرعشٌ مارداً من أعوانه إلى هؤلاء الجنود ليعرف من قائدهم وما يريدون ويرجع إليه سريعاً بما عرفه ، فقال له برقان :

ارجع إلى سيدك وبلغه أن ابن عمه برقان أتى ليزوره .

فلما أخبر سيده مرعشاً بذلك قال لغريب : انتظرنى هُنا حتّى أذهب للقاء ابن عمى وأعود به إليك . وكان برقان قد أمر أعوانهُ من المردة أن يكتفوا مرعشاً إذا لقيه واحتضنه .

ولقى برقان ابن عمه مرعشاً وهو يبتسم له ويبدى شوقه إليه . فلما سلم عليه واحتضنه انهال عليه المردة وكتفوه ، فقال مرعش : ما هذا يا ابن عمى ؟ !

فقال له برقان : لأنك صبأت ودخلت فى دين لا نعرفه .

فقال مرعش : ما دخلت فى دين التوحيد كرها ولا عن خديعة أو مخافة ، ولكنى وجدته الحق الذى لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من

خلفه ، ولولا غريبٌ ملك العراق الذى هدانا لهذا الدين الحق للبثنا فى ضلالنا القديم .

فقال برقان : وأين غريب هذا ؟

قال مرعش : هو فى مدينتى وفى أرفع مكانة بين قومى الذين اتبعوه وذاقوا حلاوة دينهم الجديد .

فقال برقان : وما جئت إلا لأقتلك وأقتل غريباً معك ؛ ثم أمر أعوانه بحبسه فحبسوه .

وهرب غلام مرعش الذى كان معه إلى المدينة . وبلغ الجنود وغريباً ما حصل لهُ وما دار من الحديث بينهُ وبين ابن عمه ، فنادى غريبٌ فى الجند أن استعدوا للحرب واطمئنوا فسأبيد أعداءكم بسيفى ، وأستخلصُ لكم ملككم مرعشاً عزيزاً مكرماً .

وفى بكرة النهار ركب غريبٌ بجواده وشهر سيف يافث بن نوح ، وجال فى الميدان متحديا من يخرُج لمبارزته وهو يقول : أنا الداعى إلى التوحيد ،أنا المبطل عبادة النيران ، فمن آمن فقد فاز ونجا ، ومن كفر وعصى سقيته كأس الردى ؛ فلما سمعه برقان عصفت برأسه الحميةُ وحلف بالنار التى يعبدها أن يخرج إليه ويقتله هو ومن بقى على دينه ممن اتبعوه واهتدوا بهديه ، ثم ركب فيلا أبيض وانفلت به إلى غريب فى الميدان وقال له : كيف أبحت لنفسك أن تدخل أرضنا ، وتغوى ابن عمى وقومه ، وتدخلهم فى دين لا نعرفه نحن ولا آباؤنا من قبل ؟ ! لتبك على نفسك اليوم فهو آخر أيامك من دنياك .

فقال غريب : لقد عميت بصائركم . فعبدتم نارًا إذا بال عليها حمارٌ أطفأها . وسترى أنك سعيت من أجلها إلى حتفك فاخسأ فى ضلالها ولا تتكلم . ثم ضربه بصفحة سيف يافث بن نوح على رأسه فوقع على الأرض مغشياً عليه . فانقض أعوان غريب من المردة عليه وكتفوه ونقلوه إلى معسكرهم . فثار الجيشان واشتعلت بينهما نيران القتال . وكان غريبٌ يلازمه الماردان : الكيلجان والقورجان . ولا يهجم على جمع إلا فرقه وانفض من أمامه خائفاً مذعوراً ، حتى وصل إلى الخيمة التى حبس فيها الملك مرعش . فأمر الماردين أن يحلا كتافه . ويكسرا قيوده . ويحملاه إلى معسكر قومه من المؤمنين . وهناك ركب جواده وتقلد سلاحه وخاض معهم معركة القتال . ولما لم يجد الأعداء منهم إلا القتل وتمزيق الجموع فروا . وعلى وجوههم صفرة الفزع والخوف . وطاروا إلى مدينتهم .

أما غريبٌ ومرعش وجنودهما فقد دخلوا مدينة يافث بعد أن طهروا الأرض من أعدائهم . وطلب غريبٌ أن يحضر الملك برقان بين أيديهم فلم يجدوه .

وعرفوا أن عفريتاً من أتباعه انتهز فرصة انشغالهم عنه بالقتال فحمله إلى مدينة العقيق وقصر الذهب . وهناك جلس فى قصره كئيباً حزيناً ، حتى جاءه المهزومون من أعوانه فهنأوه بسلامته فقال : أين السلامة وقد خسرت جنودى . ولبستُ ثوب العار والمذلة بأسرى . ولولا هربى لكنت الآن من الهالكين ؟ ! ! وما أنا بقاعد عن الأخذ بثأرى ودفع

هذه الفضيحة عنى بتدبير هؤلاء الأعداء ! وأمر بإعداد جيش عظيم للرحيل به بعد ثلاثة أيام .

أما الملك مرعش فإنه أشار على غريب أن يتبع المهزومين إلى مدينتهم قبل أن يستعد برقان بجيش عظيم ليقضى عليهم فى عقر دارهم . فأعجب غريب برأيه واستحسنه . وركبوا فى مائة وستين ألفاً إلى مدينة العقيق وقصر الذهب .

٨

سار الملكُ مرعشٌ وجنوده حتى كانوا فى واد فسيح وكان الليل قد أقبل فباتوا فيه . وفى الصباح وجدوا جيش برقان قد عسكر فى أطراف هذا الوادى ، وعرف الجيشان أن كلا منهما يريد الآخر . فقامت بينهما حربٌ طاحنة . ذاق فيها الكفار مرارة الموت والهزيمة . ولما جاء الليل أوى كل منهما إلى خيامه ، وأراد برقان أن يأخذ أعداءه بغتة وهم نائمون ، فأمر جنده أن يستعدوا للهجوم عليهم فى خيامهم ليلا . وكان فيهم مارد كان جاسوساً لجيش مرعش فانسل من بينهم وانفلت إلى مرعش وغريب . وأخبرهما بما دبر لهما برقانُ من مكيدة الهجوم عليهم بغتة وهم نائمون . فقال غريب : دعهم يهجمون كما أرادوا ؛ ثم أمر جنده أن يخرجوا من خيامهم إلى حيث يبعدون عنها . فإذا هجم برقانُ وجنودُه على خيامكم وجدوها خالية ، وحينئذ تُطبقون عليهم

من كل ناحية . وتعملون فيهم سُيوفكم ، فلا ينجو من أيديكم إلا من اعتصم بالظلام وفر هارباً .

وكذلك غلبتْ مكيدة غريب وفاز تدبيره . فما جاء الصباح حتى كان جيشُ برقان بين قتيل وهارب ، فأخذ جيش مرعش ما خلف أعداؤهم منْ مغانم وساروا إلى مدينة العقيق وقصر الذهب ، وكان برقان قد خف إلى مدينته هذه مع الهاربين ، وهناك أمر أهلها أن يأخذوا أولادهم وعيالهم وما خف حمله من أموالهم ويلحقوا به فى جبل قاف عند الملك الأزرق صاحب القصر الأبلق . فقد رحل إليه مستجيراً به .

أما مرعشٌ وجنوُده فقد وصلوا إلى المدينة فوجدوا أبوابها مفتحةً وديارها خاليةً . فدخلوها ومشوا فى طرقها وشوارعها حتى كانوا فى قصر الذهب ، فدخلوه وجعلوا ينتقلون فيه من دهليز إلى آخر حتى كانوا أمام أربعة أواوين . فرش أحدها بالبسط الحريرية وبه كرسيان منْ ذهب مُرصع بالدر والجوهر . فجلس مرعشٌ وغريبٌ عليهما ، وقال غريب :

ماذا دبرت من الرأى فى أمر برقان وجنوده الذين تركوا مدينتهم خاوية ؟

فقال مرعش : كلفت مائة من الجواسيس أن يبحثوا عنهم حتى نلحق بهم ونقضى عليهم . ونحن هنا منتظرون عودتهم .

وبعد ثلاثة أيام جاءهم الجواسيسُ وأخبروهم أن برقان رحل

بجنوده وقومه إلى جبل قاف مستجيرين بالملك الأزرق فأجارهم .

فقال مرعش : لا ينبغى أن نسكت عنه حتى يغزونا بجنود الملك الأزرق .

وأمر الجند أنْ يستعدوا للرحيل بعد ثلاثة أيام إلى جبل قاف ؛ وقبل أن يرحلوا جاءهم المردة الذين حملوا سهيما إلى قومه فقالوا :

إن عجيباً حين هرب ذهب هو وأتباعه إلى ملك من آل يعرب ابن قحطان مستجيرا به راجياً معونته فأجاره هذا الملك ؛ وأعد جيشاً لا يحصى عدداً . وقد عزم أن يغزو به العراق ليقضى به على أنصارك وأعداء أخيك عجيب .

فقال غريب : لن ينالوا منا نيلا ؛ فإن الله أعزنا وأيدنا بنصر منْ عنده . فلا خوف علينا ما دمنا مُخلصين لديننا ، مستديتين فى سبيله . وعرض الملك مرعشٌ على غريب أن يرحل معهُ إلى العراق لمحاربة أعدائه فشكره وقال : لن أفارقك حتى أقضى على أعدائك .

وأعدوا ما استطاعوا منْ خيل وقوة . وولوا وجوههم شطر مدينة المرمر والقصر الأبلق فى جبل قاف ؛ وهذه المدينةُ من الحجارة والمرمر ، بناها ماردٌ من الجن يسمى بارق بن فاقع كما بنى القصر بقطع منْ ذهب وفضة إحداهما فوق الأخرى ، ولهذا سماه الأبلق ، ونزلوا منهُ على مسافة مسيرة نصف يوم ، وأرسلوا عيونهم وروادهم يتبينون الطريق وأخبار الأعداء ومبلغ استعدادهم للقتال ؛ فجاءوهم بأن المدينة قد غصت بجنود فى عدد الرمل وقطرات المطر . وكلهم فرسان

من الجن لا يشق لهم فى الحرب غبار . فقال غريب :

قد يبلغ الإنسانُ بالرأى مالا يبلغه بالقوة . والأمر علينا يسير : وذلك أن نختلط بالجنود فى سكون الليل . ونبغتهم بالصياح مكبرين مُهللين ، وحينئذ يستيقظون على هذا الصياح الذى يملأ أسماعهم ويظنون أننا بينهم فيموجون ويضطربون : ويضرب بعضهم بعضاً بالسيوف والأسنة . ويستمر بهم هذا الضرب إلى أن ينشر الصباح ضوءه . فنهجم على بقيتهم بخيلنا وأسلحتنا ؛ وسيكون لنا النصر بعون الله وفضله .

كانتْ خطةً موفقةً صائبةً إذ جاء الصباحُ وقد أهلك الأعداء بعضهم بعضاً . ولم يبق منهم إلا قلة ضعيفة ؛ هجم عليهم مرعشٌ وغريبٌ وجنودهما ، فقتلوا برقان والملك الأزرق . ونكلوا بجنودهما حتى فروا إلى القفار هاربين . ودخلوا المدينة فائزين . ثم دخلوا القصر فوجدوا أبوابه منْ ذهب وفضّة : وعتباته من البلور وسُقُفه مموهة بماء الذهب الخالص ، ووجدوا فيه أموالا كثيرةً ؛ وفرشاً حريريةً غاليةً . وكراسى ذهبيةً وغير ذهبية ، وسررا من العاج المطعم بالذهب وأنواع الجواهر الكريمة ؛ فاسترعى أنظارهم . واستهوى أفئدتهم . وقالوا : سبحان من يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . لهُ الحكمُ وإليه تصير الأمور .

٩

ورأى غريبٌ بنتاً للملك الأزْرق تسمى كوكب الصباح . وأمها بنتُ ملك الصين . خطفها الملك الأزرقُ وتزوج منها ، فولدت له هذه البنت ثم ماتت بعد ولادتها بأربعين يوماً ، فكفلها أبوها حتى بلغت من العمر سبع عشرة سنة .

رآها غريبٌ فملكت عليه بجمالها كل مشاعره وأبدى لمرعش رغبته فى الزواج منها فقال : القصرُ ومنْ فيه ملك لك . ونحنُ لا ننسى فضلك علينا . ولولاك ما انتصرنا على هؤلاء الأعداء .

وأمر غريبٌ أن يهدم القصر وتوزع قطعه من الذهب والفضة على المحاربين . ونال غريبٌ منه شيئاً كثيراً . إلى ما ناله من الأموال والذخائر الأخرى التى عثروا عليها .

استأذن غريبٌ مرعشاً أن يعود إلى قومه وأهله . فقال : سأصحبك حتى تصل إلى ديارك فى سلامة .

فقال غريب : لنْ يصحبنى إلا الماردان : الكيلجان والقورجان .

فأمر مرعشٌ ألف مارد أن يحملوا الغنائم التى خصتْ غريباً . وأن يكونوا معه حتى يستقر فى دياره بين قومه وأهله .

فقال غريب : وليحملوا معهم كوكب الصباح ، حتى لا يرهقها السفر ويشق عليها الرحيل .

ثم سلم عليه مرعش ووصاه أن يبلغه إذا ما أصابه مكروه حتى يؤدى بعض ما وجب عليه من المعونة والوفاء . ومنحه جواداً أعجب غريباً وفرح به . وحمل المردة غريباً والأموال وطاروا حتى نزلوا على مقربة من مدينة عمان . فأمر غريبٌ الكيلجان أن يذهب إلى المدينة ويأتيه بأخبارها قبل أن يدخلها . فجاءه الكيلجان وقال : إن المدينة يُحيط بها جنود كالبحر الزاخر . وهم فى حرب مع قومك . والجمرقان بارز لهم الآن فى الميدان .

فقال غريب : على بجوادى وسيفى .

فقال الماردان : استرح أنت ونحن نمزق شمل الأعداء ، وندمر بنيانهم .

فقال : لن تقاتلا إلا وأنا معكما على جوادى .

كانتْ هذه الجنود لملك الهند طركنان ؛ وذلك أن عجيباً حينما هرب هو وأتباعه من جيش آل يعرب بن قحطان المهزوم ذهبوا إلى طركنان ملك الهند ، وقال عجيب له : جئتك مستجيرا بك من أخ يسمى غريباً . وهو ملك العراق . اعتنق دين التوحيد وأبطل عبادة النار . وتبعه خلق كثير . ولأنى لم أتبع دينه ولم أترك عبادة النار . اضطهدنى . ورام قتلى . وجعلت أنا وأتباعى نفر خوفاً منه ، تتقاذفنا البلادُ والقفار . حتى أتيناك لاجئين لائذين .

فقال قد أجرتكم فاطمئنوا . وأمر ابنه أن يخرج فى ثمانين ألفاً إلى العراق . لينتقم منهم لعجيب . وقال ائتنى بغريب وكبار أعوانه

مقيدين فى الأغلال. لأنعم هنا بتعذيبهم حتى يعبدوا النار أو يموتوا .

وسار رعدشاه بن طركنان ملك الهند فى جنده حتى كانوا حول مدينة عمان وبدأت المبارزة بين الجانبين . وأسر بيطاش الأقران عم الملك طركنان الجمرقان وسعدان الغول وغيرهما .

وبينما هم فى غمهم يألمون إذ بدا لهم ملكهم غريب ملثما يجول على جواده فى الميدان وفى يده عمود برقان الذهبى ملك الجان . وهو يصيح مكبراً مهللا ؛ ثم هجم على بيطاش وضربه بالعمود ضربة واحدة فوقع على الأرض مغشياً عليه ، ثم التفت إلى سهيم وأمره أن يكتفه ويحمله إلى معسكر المؤمنين . وهكذا جعل يأسر كل من بارزه حتى بلغ عددهم اثنين وخمسين أسيراً . والمؤمنين يعجبون أن جاءهم هذا الفارس الذى لا يعرفونه . فأنقذهم . وسخر من أبطال أعدائهم ؛ ثم انقضى النهار وذهب إلى معسكر المؤمنين وكشف اللثام عن وجهه فعرفوه ، وماجوا فرحين مستبشرين . شاكرين لله أن أنعم عليهم بقدوم ملكهم ؛ وجلس غريب فى حجرة الملك من مدينة عمان ، وأمر الجنود والأهلين أن يذهبوا إلى مراقدهم مطمئنين . ولم يبق معه إلا الماردان : الكيلجان والقورجان ، فأمرهما أن يذهبا به إلى العراق ويعودا به قبل الصباح . فذهبا به وزار أهله الذين فرحوا بقدومه . ثم عادا به إلى مدينة عمان والليل لم ينسلخ منه النهار .

وصحا المؤمنون من النوم فوجدوا بينهم سعدان الغول والجمرقان وبقية الأسرى ، حملهم مارد من أعوان غريب بالليل . وأعداؤهم لا يشعرون .

وفى الصباح نزل غريب ميدان القتال على جواده ، وفى يده سيف يافث بن نوح وقال :

أنا غريبُ ملكُ العراق واليمن . من عرفنى فقد عصم نفسه منى ، ومنْ لمْ يعرفنى فليبرز إلى لأعرفه بنفسى إن أبقيته فى الأسر حياً .

فلما سمع رعد شاه بن ملك الهند ما قاله غريبٌ أمر بإحضار عجيب أخيه فقال له :

أنت السببُ فى هذه المحنة التى حاقت بنا ، وهذا أخوك الذى تشكو منه ، فابرز إليه وائتنى به لأحمله إلى أبى موثقاً مقيداً .

فقال عجيب : أعفنى من الخروج إليه فإنى ضعيفٌ .

فقال : وإن لم تبرز إليه قطعت رأسك . فأنت سبب هذه الفتنة ولابد أنْ تصْطلى بنارها ، وإذا كان هذا أخاك وكان أقوى منك وأكثر أعوانا فلماذا تتمرد عليه ؟ ! ابرز إليه فى الميدان وإلا قطعت رأسك . فلا ينبغى أن تجعلنا حطباً لنيران الحرب وأنت فى منجاة منها .

فخرج عجيب إلى أرضه وقال : أنا عجيبٌ ، جئتك فى هذا الجيش الذى يهلكك ويبدد قومك وأتباعك . فأسلم إلى قيادك وإلا فقد أنذرتك سوء المصير .

ففرح غريبٌ وابتدره بضربة بالدبوس فى صدره . انحلت لها أعصابه ، ومد يده فاختطفه من سرجه ورماهُ إلى الماردين فكتفاه وحملاه أسيرا ذليلا إلى معسكر المؤمنين : فأسرع إليه رعدشاه وقال :

يا غريب ؛ جئتك ناصحاً قبل أنْ أسقيك كأس الموت ، فاستمع

لما أقول : انزل عنْ جوادك ، وقبل رجلى ، وأطلق الأسرى من أبطالى ، وسر معى إلى أبى ملك الهند ، واجعلنى شفاعة لك عنده ليبقيك حياً تعيش على لقمة الخبز .

فضحك غريبٌ وقهقه حتى بدت نواجذه ، ونادى سهيما وأمر أن يحضرَ إليه الأسرى . فضرب رقابهم أمام رعد شاه . وقالَ : هؤلاء الأسرى من أبطالك ،وسترى أنت الآن ما يحل بك ، ففر رعد شاه وأيقن أنه مغاوبٌ غير منتصر ، إن لم يحضر الوهق الذى يصيد به الفرسان الذين يفوقونه ولا يقدر عليهم ، وهو شىء مثل الشبكة يرْميه على الفارس فيحبسه فيه ويجره إليه ، ثم قالَ لغريب : أنظرنى حتى أستوفى عدة حربى .

فقال : أنظرتك ، فاذهب وأحضر ما تشاء من العدة والسلاح .

أحضرَ رعد شاه الوهق وجاءه على فيل ضخم فجفل جواد غريب ، فنزل وتركه ، وأقبل على رعد شاه ماشياً ، فابتدره ورمى عليه الوهق فحبس فيه ، وكان الماردان لا يفارقان غريباً ، فأمسكا فيل رعدشاه . فوقف فى مكانه لا يتحرك . واستطاع غريبٌ أن يكسر الوهق ويفات منه ، وأقبلَ هو والماردان على رعدشاه . فكتفوه وساقوه أسيراً إلى خيامهم .

وحينئذ هجم الجيشان بعضهما على بعض واشتد بينهم الطعن والضربُ حتى جاء الليل ، وذهبَ كل إلى معسكره ، وكانَ القتلى من جيوش المؤمنين كثيرين . وسألهم غريبٌ عن سبب ذلك

فقالوا : ما غاظنا إلا الفيلةُ . فهى سببُ هزيمتنا فى ذلك اليوم .

فقالَ رَجلٌ من أهل عمان : أنا أكفيكم شرها ، وأجعلها نكبةً على أصحابها إن أطعتمونى . فأمرهم غريبٌ أن يطيعوا أمره ؛ فأحضر لهم من دار السلاح سهاماً ونبالا وأمرهمْ أن يستقبلوا الفيلة بالنبال حتى ترتد خائفة ، فتدوسهم بأقدامها ،ونكون حينئذ قد أغرنا عليهم بسيوفنا ورماحنا . وحينئذ يولون الأدبارَ إلا من قتل وَهلك .

أثمر هذا التدبير ثمرته وهزم جيش رعد شاه بأخفاف الفيلة وسيوف المسلمين . وَشتتوا فى القفار خائبين ، وفرح المسلمون بنصرهم ومغانمهم .

وبعد أيام أحضر غريبٌ أخاهُ عجيباً وقالَ له : سأغفر لكَ خطيئاتك فى أمى وأبيك . وخيانتك وتأليب الملوك علينا ، وسأترك لكَ ملك أبيكَ . وأكونُ تحت أمركَ إن أنت صدقت وآمنت .

فقال : لنْ أترك دينى أبداً .

فتركه فى قيده وأمر بحبسه وحراسته . ثم التفت إلى رعد شاه وقال : وما رأيك فى دين التوحيد الذى أدعوك إليه ؟

فقال : لولا أنه حق ما نصركم ربكم علينا . فماذا أقول حتى أدخل فى دينكم ؟

فقال له : قل : آمنت بالله وحده . فقالها .

فقال له غريب : الآن حقنت دمك . وأصبحت كأحدنا : حرامٌ علينا دَمكُ وعرضُك ومالك إلا بحق الدين . فاذهب إلى بلادك وادع الناس إلى هذا الدين الذى آمنت به وذقت حلاوته .

فقال : أخافُ من أبى أن يقتلنى لأنى فارقت دينه الباطل .

فقال غريب : حينئذ أذهبُ معكَ إليه ، وافتح لك بلاد أبيك لتكون ملكها ، وننشر فيها دين الله ، ثم أمر الماردين الكيلجان والقورجان أن يحملاه هو ورعد شاه وسعدان الغول والجمرقان إلى بلاد الهند ، فأنزلاهم على سطح قصر الملك بمدينة كشمير ، وكان المنهزمون قد سبقوهم إلى طركنان وحكوا له قصة الهزيمة وأن ابنه رَعدشاه أسيرٌ فى أيدى المؤمنين ؛ فجلسَ فى قصره هذا حزيناً لا يدرى ما يفعله من أجل ابنه .

وبينما هو غارقٌ فى حزنه وتفكيره دخلَ عليه ابنهُ ومعهُ غريبٌ وسعدان الغول والجمرقان ، والماردان ، فاندهش لهذه المفاجأة التى لم يكن ينتظرها ؛ ولكن دهشته لم تلبث إلا قليلا ، لأن خوفه من الماردين ملأ صدره وشغل حسه ؛ فجلس ساكتاً لا ينطق ، ثم قال ابنه : ما رأيت هزيمة فى جيش أثمرت نعمةً وخيراً كهزيمتى فى جيشى هذه المرة ، فقد أخرجتنى من ظلمات الكفر وعبادة النار إلى نور الإيمان وعبادة الله الواحد القهار ؛ فيا أبت ، لا تعبد النار التى لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عنك شيئاً ، واعبد الله الذى خلقَ النارَ وخالق كل شىء . فرماه أبوه بدبوس كان معه ، ولكنه أخطأه ، فأصابَ جدار الحائط فهدم منه ثلاثة أحجار ، ثم قال : أفنيتَ جنودى ، وخسرت دينك ودين آبائك ، وجئت تغوينى وتخرجنى من دينى ؟ ! فلكمه غريب فى عنقه ، وأقبل الماردان فأوثقا كتافه ، ثم عرضوا عليه الإيمان فأبى

واستكبر ، فضربه غريبٌ بسيفه الماحق فقتله ، ثم أمر أن يعاق على باب القصر وأجلس ابنه رعد شاه على كرسى مُلكه ، وجلس غريب عن يمينه ، والماردان والجمرقان وسعدان الغول عن اليمين وعن الشمال ، وأمرهم غريبٌ أن يحبسوا كل من قدم إلى القصر من الملوك والرؤساء ، وأن يحضروهم بين أيديهم ، وما طلعت الشمس حتى كان بين أيديهم من هؤلاء الملوك والرؤساء ثلاثمائة خمسون ؛ فقال لهم غريبٌ : أرأيتم ما أصاب مليككم ؟

فقالوا : نعم ، ومن فعل به هذا ؟ !

قال غريب : أنا الذى قتلته وسأقتلكم مثله إن بقيتم على عبادة النار ، ولم تؤمنوا بالله ورسله .

فقالوا : آمنا بالله ورسله ، ونحمد الله تعالى الذى سخرك لنا ، فأخرجنا من الظلمات إلى النور .

فقال غريب : وهذا ملككم رعدشاه قد آمن من قبلكم ، فاذهبوا إلى قومكم وادعوهم إلى الإيمان ، فمن أبى منهم فاقتلوه ، فآمن أقوامهم جميعهم إلا قليلا منهم قتلوا وطهرت منهم الديار .

ثم أقام غريبٌ أربعين يوماً بنى فيها المعابد ، وثبت الملك لرعد شاه ، ثم رحل إلى العراق ومعه سعدان والجمرقان يحملهم الماردان ويحملان ما معهم من الهدايا والتحف .

وكانوا فى مدينة عمان وقت الفجر ، ودعا أخاه عجيباً فعرض عليه الإيمان مرة أخرى فلم يقبل فأمر أن يقتلوه رمياً بالنبال ، وانتقل

بموته إلى جهنم وبئس المصير : ثم رَحلوا إلى عاصمة العراق التى فرحت بقدومهم ، وتلقتهم بمظاهر الفرح والغبطة .

أقام غريبُ فى العاصمة مدة غيرَ طويلة . دخل فيها بمهدية ، ثم استخلف عمهُ ودخل هوَ بابل ، وأقام فيها عشرة أيام ، ثم إلى حصن سعدان الغول فاستراحوا فيه . ثم كلف الماردين الكيلجان والقورجان أنْ يذهبا إلى المدائن ويدخلا قصر كسرى ، ويأتياه بأخبار فخر تاج ، ورجل من أقارب الملك ليقص عليه ما جرىَ . وبينما هُما يطيران بين السماء والأرض رأيا جيشاً كأنه البحر الزاخر ، فنزلا ومشيا معَ جنده . حتى عرفا أنهم أعجام يقودهم رستم إلى غريب ملك العراق واليمن ليقتلوه ويقتلوا أتباعه . فصبرا حتى جاء الليل وناموُا ونام ملكهم رستم فى خيمته . فدخلا عليه وحملا سريره وهو نائم عليه ، ووضعاه بين يدىْ غريب . فسألهم : من هذا ؟ !

فقالا : هذا رستم قائد قواد العجم جاء فى جيش جرار يبغى قتلك ومَنْ معك وأتباعك .

فقال غريب : أحضرا لى مائة بطل ومعهم سيوفهم ، فلما حضروا أمرهم أن يحيطوا بهذا الملك وسيوفهم مشهورة فوق رأسه ، ثم نبهوه وأيقظوه ، فوجد نفسه تحت ظلة من السيوف القاطعة . فكاد يصعق من شدة الفزَعَ ، وقال : أين أنا الآن ؟ !

فقالوا : أنت أمام الملك غريب الذى يبطل عبادة النار ، ويدعو

إلى الإيمان بالله الذى خلق النار وخلق السموات والأرض وهو رب كل شىء .

فقال : وقد أبطلت معه عبادة النار . وآمنت بالله ورسله . فأمر أن ترفع السيوف عن رأسه ، وأن يجلس معهم كأحدهم ، ثم سأله : ما اسمك ؟ ولماذا قدمت ؟

فقال : أنا رستم ، من رؤساء العجم ، أرسلنى صهرك الملكُ سابور فى مائة ألف لقتلك وقتل من يتبعونك .

فقال غريب : سيجزيه الله بما أضمر فى نفسه للناس من شر . وكيف حال الملكة فخر تاج ؟

فقال : البقاء لله !

فقال غريب : وما سبب موتها ؟ !

فقال : بعد أن غادرتنا فى طلب أخيك دخلت جاريةٌ من جوارى أبى الملك سابور عليه . وقالت : هل أذنت أن يزور غريبٌ سيدتى فخر تاج فى قصرها ؟ فقال : لا . ثم قام إلى ابنته وقال : كيف قبلت أن يزورك غريبٌ وما أعطانا مهرك ؟

فقالت : إنك أذنت له وزوجتنى منه .

فغضب وأمر الجوارى أن يحبسنها ، وأراد أن يقتلها فأبت زوجته وقالت : إن فى قتلها علانية معرة لنا ، ولكن احبسها حتى تموت صبراً . فقال : سأفعلُ أعظم من هذا . وكلف اثنين من خواصه أن يأخذاها فى ظلام الليل ويلقياها فى نهر جيحون ثم يعودا ، وأن يبقى ذلك العمل

سراً فى ضمير الغيب ، ففعلا ما أمرَ ، وذلك ما عرفناه بعد زمن طويل ، فحزن غريب على زوجته ، واشمأز من فعلة أبيها المنكرة ، وقال : سأنتقم منه شر انتقام وأوجعه . وكتب إلى الجمرقان وصاحب ميافا رقين وصاحب الموصل أن يحضروا إليه فى ألوف من الفرسان ، ثم قال لرستم : كم جندياً معك ؟ فقال : مائة ألف من العجم فقال : سر فى عشرة آلاف إلى قومك واشغلهم بالحرب حتى أدركك ، وعَزَم رستم أن يفعل فى قومه ما يقربه من غريب ويجعل له لسان صدق عنده ، فأمرَ جنده من المؤمنين أن يحيطوا بجيش العجم مبعدين ، فإذا شملهم سكون الليل واطمأنت جنوبهم فى مضاجعهم ، فصيحوا من حولهم مكبرين مهللين ، واهجموا عليهم بسيوفكم وصيحاتكم هذه التى تملأ آذانهم وقلوبهم ، فإذا ما رأيتموهم تضاربوا بالسيوف فانسحبوا مبعدين صامتين ، واتركوهم فى الظلام تأكلهم سيوفهم ويقتلون أنفسهم بأيديهم . وفى ضوء الصباح أغيروا عليهم من كل ناحية حتى لا تبقى منهم باقية .

وقام الجند بما دبره رستم فكانت معركة قاضية ، وفى ضوء الصباح فر الباقون من جيش العجم ، ولاذوا بالصحراء تاركين خيامهم وأموالهم فاحتلها رستم بجنوده المؤمنين ، ولبثوا فيها حتى أتاهم غريب .

قدم غريبٌ فى جيش يملأ الأرض ، فوجد رستم قد سحق جيش العجم ، واحتل خيامه ، وغنم أمواله ، وأرغم الباقين منه على الفرار والهرب ، فاستبشر برستم ، وأحبه ، وقال له : ما غنمته فهو لك ، ثم استراحوا يومهم هذا ، وجدوا فى المسير إلى سابور ملك العجم ، وكان

الهاربون قد سبقوهم إليه ، وحكوا ما نزل بهم من هزيمة شنعاء ، فسألهم : ومن فعل بكم هذا ؟ فقالوا : قائدك رستم ، فإنه آمن وأصبح من أعوان الملك غريب وأتباعه . فاحتدم الغيظ فى صدره والتفت إلى ابنه وردشاه قائلا : ليس لهذه الداهية من فارس غيرك !

فقال وردشاه : وسأسوق إليك غريباً وكبراء أعوانه مكتفين بعد أن أدمر قومه وأتباعه تدميراً ، فلا تبتئس بما فعل رستم الذى خانك وصبأ ، وكان حرباً عليك بعد أن وثقت به ، واثتمنته على جيشك .

أعد وردشاه جيشا عدته مائة وعشرون ألفاً ، ولما هم بالرحيل بان لهم فى الأفق غبار جيش يقطع الفيافى إليهم ، فعسكروا أمام المدينة ينتظرون ، وأرسلوا روادهم ليكشفوا لهم أخبار هذا الجيش القادم .

فقالوا لهم : أتاكم الملك غريب بجيش فى عدد الحصى ، وقلوب الأسود الكاسرة ، وقوة السيول الهادرة .

ورآهم غريب ضاربين خيام الجنود أمام المدينة ، فنزل بجيشه قبالتهم ، وضربوا خيامهم ، ولبثوا فيها يرتقبون صباح الغد ليبدأوا فيه القتال .

ولما أصبح الصباح ركب رستم جواده وجال فى الميدان منادياً من يبارزه ؛ فبرز إليه بطل من أبطال العجم اسمه طومان ، فضربه رستم بعمود كان معه فوقع على الأرض مهشما يتخبط فى دمه ، فاغتاظ سابور وأمر الجيش بالهجوم العام وقابلهم المؤمنون بهجوم مثله ، وحمى وطيس الحرب ، واشتد الطعن والضرب ، وطارت الأرواح إلى بارئها ، وسالت الدماء ، وتناثرت الأشلاء ، وعم الكرب وشمل البلاء ، وضرب

غريبٌ حامل عَلم الأعجام ورافعه ضربةً أوقعته على الأرض مغشياً عليه ، فأخذه الماردان أسيراً ، ولما رأى جيش سابور أن العلم قد سقط تزاحموا على أبواب المدينة هاربين ، والمؤمنون من خلفهم مطبقون حتى نادوا : الأمان الأمانَ . وكان سابور قد سيق إلى المسلمين أسيراً . فوقف القتالُ ودعاهم غريبٌ إلى الإيمان فآمنوا ، وآمن معهم أهل المدينة . ثم ذهب إلى قصر سابور وجلس على كرسى ملكه ، ووزع الغنائم على أهل المدينة فعرفوه بالشجاعة والكرم وأحبوه .

وجاءته أم فخر تاج باكيةً وقالت : معذرة يا سيدى الملك ، فما بكائى إلا من أجل ابنتى فخر تاج . فقد تذكرتها حينما رأيتك ، ولو كانت موجودة لفرحت بقدومك فرحاً عظيماً .

فأمر غريب أن يأتوه بسابور ، فلما جاءه سأله : ماذا فعلت بابنتك فخر تاج ؟

فقال : أمرت هذين الرجلين—وأشار إليهما—أن يلقياها ليلا فى نهر جيحون ؛ فسأل الرجلين عما قاله سابور فقالا : أمرنا بإلقائها فى نهر جيحون ليلا ، ولكننا أشفقنا عليها واستنكرنا إلقاءها . فتركناها على شاطئ النهر ، وحذرناها أن ترجع إلى مدينة أبيها ، حتى لا يقتلها ويقتلنا معها ، ولا ندرى الآنَ أهى من الأحياء أم من الأموات .

فدعا غريبٌ المنجمين وأمرهم أن يكشفوا له خبرها ، فقالوا : إن فخر تاج لا تزال حية ، وقد ولدت لك غلاماً . وهى عند طائفة من الجن . ولن تلتقى بها إلا بعد عشرين سنة من فراقها . وكان قدْ فارقها منذ ثمانى سنوات .

١٠

وبينما هو جالس فى قصره رأى غباراً ملأ الجو ، فأمر الكيلجان والقورجان أن يأتياه بخبر هذا الغبار . فخطفا فارساً ووضعاه بين يدى غريب : وقالا : سل هذا فإنه من الجنود القادمين .

فقال : هرب ابن سابور فى شرذمة قليلة من فرسان أبيه بعد أن هزمته إلى مدينة شيراز ، وشكا إلى ملكها ما فعل غريب ملك العراق واليمن ، وحكى له أنه يدعو إلى الإيمان ، ويتبعه خلق كثير . وأنه أبطل عبادة النار ، وقتل كثيراً من الأعجام ؛ فقال وردشاه ملك شيراز : سأقطع دابر العرب والمؤمنين ، وجاءك بهذا الجيش الذى تراه . وفيه ابن سابور مع الملك .

فقال المارادان : نرجو منك أن تترك لنا هذا الجيش نقاتله . فقال : هو لكما فافعلا ما تشاءان ، فذهبا إليه . وخطفا ورد شاه ملك شيراز ، وابن سابور ، ووضعاهما أمام غريب فأمر بحبسهما . ثم رجعا إلى الجيش وجعلا يحصدان الأرواح بسيفيهما حصداً والكفار يرون الأجسام تتساقط على الأرض ، والرءوس تتناثر ولا يرون ضارباً . فخافوا وفروا تاركين أموالهم بعد أن خسروا فرساناً كثيرين ، ولما كانوا فى مدينة شيراز حكوا ما أصابهم إلى أهلها . وأعلموهم أن الملك وابن سابور خطفا من بينهم .

وكان للملك وردشاه صاحب مدينة شيراز أخ ساحر وكاهن يسمى

سيران الساحر ، وهو منعزل عن مدينة شيراز فى حصن بينه وبينها مسيرة نصف يوم ، فذهبوا إليه وأخبروه فقال : سأقتله وأقتل قومه وأعوانه ، وليذهب كل منكم إلى شأنه .

ثم قرأ كلمات وتمتم ، فحضر الملك الأحمر وهو من الجان ، وأمره أن يأتيه بغريب من حيث هو ، فقال : سمعاً وطاعة ؛ ثم طار إليه . فلما عرفه غريبٌ جرد سيفه الماحق وهم أن يقتله بمعونة الماردين اللذين لا يفارقان ، ولكن الملك الأحمر فر من وجوههم ، وذهب إلى سيران وقال له : كان فى بعثك إياى إلى غريب حتفى وهلاكى ، فإنه يحمل سيف يافث بن نوح ، وهو مطلسم ، لا نستطيع أن نهجم عليه وهو فى يده . فقال له سيران : امض أنت لشانك .

ثم تلا كلمات ، وهمهم وتمتم ، وأحضر مارداً آخر اسمه زعازع ، وناوله درهماً من بنج طيار ، وقال له : اذهب إلى غريب فى صورة عصفور ، فإذا رأيته قد نام فضع هذا البنج فى أنفه ، ثم احمله وائتنى به ، ففعل المارد ما أمره به سيران ، وكان غريبٌ بين يديه فى منتصف الليل ، وأراد أن يقتله ، فنهاه رجل من قومه ، وقال له : إن قتلته فقد خربت ديارناوفتحت علينا أبواباً من المصائب والمحن لا نقدر على سدها ، فإن الملك مرعشاً صاحبه ، وربما أطلق علينا عفاريته فلا نجد راحة ، بل لا نجد الحياة ، فقال : وماذا أصنع فيه ؟ !

قال : ألقه فى نهر جيحون وهو مبنج ، فلا يدرى من ألقاه فيه ، وسيموت غرقاً دون أن يعرف أحد .

فأمرَ سيران المارد أن يرميه فى نهر جيحون ، فحمله المارد إلى شاطئه . ولم يهن عليه أن يرميه ؛ فأحضر خشباً كأنه الفلك ، وربطه فيه ، وألقاه فى النهر عائماً سائراً مع التيار .

أما قوم غريب فإنهم تفقدوه فى الصباح ، وبحثوا عنه فى كل مكان ، فلم يجدوه ، وانتظروا له عودةً حتى يئسوا ، فأسلموا الأمر لله وصبروا .

١١

جعل التيار يجرى بغريب حتى ألقاه فى البحر الملح ، وجرى به فيه حتى بعد عن شاطئه ، ثم أفاق من خدر البنج فوجد نفسه فى فى البحر وليس بجواره أحد ؛ ثم رأى فلكاً سابحاً فى البحر ، فلوح لمن فيه بيده فأقبلوا عليه ، وانتشلوه من الغرق ، ثم سألوه عن نفسه ، وعن سبب ما كان فيه من خطورة ، فقال أطعمونى واسقونى أولا حتى أستطيع أن أتكلم وأحكى لكم : فأحضروا له طعاماً ، وأكل حتى شبع . ثم قال لهم : من أين أنتم ؟ ! وما تعبدون ؟!

قالوا : نحن من الكرج ، ونعبد صنما اسمه منقين .

فقال لهم : تبا لكم ولما تعبدون من الأصنام ! ! إنما يُعبد الله الذى سيركم فى البحر ، وجعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البحر والبر .

فأرادوا أن يضربوه ، ولكنهم رأوا أن يكتفوا بأن يكتفوه ، وقالوا : لا نقتله إلا فى أرضنا ، لنعرضه على مليكنا . وكان قد أنشأ مدينة الكرج

عملاق جبار . وجعل على أبوابها تمثال شخص من نحاس مطلسم ، وكلما دخل إنسان غريب المدينة نفخ فى البوق فأمسكه أهل المدينة وقتلوه إن لم يدخل فى دينهم .

فلما دخل غريب مدينة الكرج صَاحَ ذلك التمثال صيحة أفزعت الملك وجعلته يذهب إلى صنمه ويسأله ، فوجد النار والدخان يخرجان من فمه وأنفه ، وكان الشيطان قد دخل فى جوفه وقال للملك : دخلَ مدينتك الآن مَلك العراق واليمن . واسمه غريب ، وهو يصرف الناس عن دينهم ، ويدعوهم إلى دينه ومذهبه . فإذا دخلوا به عليك فاقتله ولا تبقه لحظة واحدة .

فلما خرج الملك وجلس على كرسى ملكه جاءوه بغريب هذا وقالوا : قد وجدنا هذا غريقاً فى البحر فأخرجناه ونجيناه ، وهو كافر بآلهتنا ، وقصوا عليه قصته .

فقال الملك : اذهبوا به إلى بيت الصنم الكبير ، واذبحوه أمامه ؛ فلعله يرضى عنا .

فقال الوزير : لا ينبغى ذبحه ، ولكن نوقد النار و نلقيه فيها .

فأمر الملك بإلقائه فى النار .

جعل القوم يجمعون الحطب ويوقدون النار طول الليل ، ثم ذهبوا فى الصباح إليه فى سجنه ليحضروه فلم يجدوه . فأخبروا الملك فقام إلى صنمه ليسأله ، فلم يجد الصنم أيضاً ، فالتفت إلى وزيره وقال : أنت الذى أشرت على بإلقائه فى النار وكنت سأذبحه ، وها هو ذا قد

سرقَ الصنم ومضى ؛ ثم ضرب عنق الوزير بسيفه فقتله ! !

وكان السبب فى هرب غريب أنه وهو فى سجنه جلس إلى جوار قبه الصنم الكبير وجعل يذكر الله تعالى ، ويدعوه بصفاته ؛ فسمعه المارد الذى وكل إليه الصنم الكبير ، فخشع قلبه وأضاء بنور من ربه ؛ وجاء إلى غريب وقال : قد حبب إلىّ دينك ، فماذا أقول حتى أدخل فيه ؟ فأرشده ، ثم حمله المارد ، وحمل الصنم وطار بهما فى الجو ، وكانَ هذا المارد اسمه زلزال بن المزلزل ؛ وأبوه من كبار ملوك الجان .

قَتلَ الملك وزيره ، فأنكرَ القومُ هذا الحادث ، كما أنكروا عبادة الصنم فقتلوا الملك ، ثم وقعوا فى فتنة عمياء وجعل يقتل بعضهم بعضاً حتى فنوا ، وهجرت النساء والبنات المدينة وذهبن إلى القرى ، وأصبحت المدينة خالية لا يسكنها أحد .

أما المارد فإنه طار بغريب إلى بلاده فى جزائر الكافور ، وقصر البلور ، والعجل المسحور ، وكانَ عند المزلزل أبيه عجل أبلق ألبسه حلياً من ذهب ، واتخذه هو وقومه إلهاً يعبدونه ؛ فدخل عليه ، فوجده فزعاً غاضباً ، فسأله عن حاله ، وكان الشيطان قد دخل فى جوفه فقال : إن ابنك قد صبأ ، ودخل فى دين غير دينك ، وَحكىَ لهُ ما َجرى من زَلزال َمعَ الملك َغريب ، فعرض الأمر َعلى رجال دولته فعجبوا وقالوا : ماذا نفعل :

فقال : إذا جاء ابنى ورأيتمونى قد احتضنته فأمسكوه وكتفوه ، فلما جاءه بعد يومين ومعه غريب أمسكوه وكتفوه ، ثم قال له أبوه :

كيف صَبأتَ وتركت دينك ودين آبائك ؟

فقال الابن : يا أبي تركت الباطل إلى الحق ، وخرجت من الظلمات إلى النور ، فآمنت بالله ورسله ، وإني أدعوكم إلى أن تؤمنوا بما آمنت به لتنجوا من عذاب النار .

فغضب أبوه وأمر بحبسه ، ثم التفت إلى غريب وقال : يا هذا ، كيف خدعت ابني حتى ترك دين آبائه وأجداده ؟

فقال غريب : أخرجته من الضلال إلى الهدى ، ومن النار إلى الجنة ! !

فأحضر الملك ماردا اسمه سيار ، وأمره أن يلقيه في وادي النار ، وهو واد شديد الحر ، لا يذهب إليه إنسان إلا هلك ، فطار به المارد إليه ، وقبل أن يصل إلى ذلك الوادي أحس تعباً لم يستطع معه أن يستمر في طيرانه ، فنزل به في واد كثير الأشجار والمياه والثمار ليستريح ، وانتهز غريبٌ فرصة نوم المارد ورفعَ حجراً ثقيلا ، وضرب به رأس المارد فقتله .

وكان هذا الوادي في جزيرة وَسط البحر ، وأقامَ غريبٌ فيه سبعَ سنين يعيش على ثمار أشجاره .

وذات يوم نزل على غريب من الجو ماردان مع كل واحد رجل ، وكان قد طال شعره وامتدت أظافره ، فحسبوه من الجن وسألوه عن حاله ؛ فحكى لهم قصته .

فقال أحد الماردين انتظرني هنا حتى نترك هذين الخروفين عند

مليكنا ليأكلهما . ثم أعود إليك وأحملك إلى بلادك .

فقال غريب : وأين الخروفان ؟ !

فقال المارد : هذان الآدميان فعجب غريبٌ . واستغفر الله فى نفسه ، واستعاذ به وصبر .

وبعد يومين جاءه المارد ، وحمله وارتفع به فى الجو حتى كاد يسمع تسبيح الملائكة . فانطلق إليه شهاب فهوى إلى الأرض حتى كانَ بينها وبينه مقدار رمية الرمح . فقفز غريبٌ ونزل إلى الأرض عن كاهله ، وأصابَ الشهاب المارد فأحرقه وصار رماداً . وكان سقوط غريب فى البحر . فجعل يعوم ويسبح حتى تعب وكلت قواه ، ورأى جبلا قريباً منه فجعل يسبح نحوه حتى خرج من البحر وصَعد فيه ، وطعم من نباته .

ثم هبط من الجبل فى ناحيته الثانية وَسارَ مدة يومين حتى وجد مدينة ، فأمسكه حراس الباب وذهبوا إلى ملكتهم جانشاه وكان لها من العمر خمسمائه سنة ، وكانت تقتل كل إنسان غريب يعرض عليها ، وقتلت فى ذلك خلقاً كثيراً ، فلما رأت غريباً أعجبها فسألته : ما اسمك وما دينك ؟ ومن أين البلاد ؟

فقال غريب : اسمى غريب ملك العراق ، ودينى التوحيد .

فقالت : ادخل فى دينى وأنا أتزوج منك ، وأجعلك ملكاً على بلادى .

فقال : تباً لصنمك ، وهل يخرج من النور إلى الظلمات إلا ضال أو جاهل ؟

فقالت : أتسب صَنمى وهو من العقيق المرصع بالذهب والجواهر؟ !
ثم أمرت أن يحبسوه مع صَنمها لعل قلبه يلين . فوضَعوه معه فى حجرته وأغلقوا عليهما الباب ، ومضوا إلى شأنهم .

حمل غريبٌ الصنم وضربَ به الأرض فأصبح هشيما . ثم نامَ معتمداً على ربه ، وفى صَباح الغد جاءت الملكة إلى مقصورة حكمها وطلبت الأسير ، فذهبوا إليه ليحضروه فوجدوا الصنم مُهشما ، وأبى غريبٌ أن يذهب إلى الملكة معهم . وكلما حاولوا أخذه بالقوة لطمهم ، وكلما لطم واحدا منهم قتله ، حتى بلغ عدد القتلى خمسة وعشرين قتيلا ، فقالوا للملكة ؛ إن الأسير هشم صنمك ، وقتل رجالك ، فقالت :

وما هذه الأصنام التى لا أثر لها ولا تقدر أن تدافع عن نفسها ؟ ! !

ثم ذهبتْ فى ألف بطل إليه . فوجدت فى يد غريبٌ سيفاً يضرب به رقاب الجموع المحتشدة ، فقالت ؛ ما أنا فى حاجة إلى الأصنام بعد ذلك ، وليس لى إلا أن أتخذ هذا الغريب الشجاع زوجاً لى بقية حياتى ؛ وأمرت رجالها أنْ ينفضوا من حوله ، ويغمدوا أسلحتهم ، ويسكتوا عنه ، وتقدمت إليه ، وهمهمت وتمتمت ، فوقف ذراعه ، وانحلت قوته ، وارتخى ساعداه ، وسقط السيف من يده . فأمرت رجالها أن يكتفوه ويحملوه إلى مقصورتها . وهناك اختلت به وقالت له : أتكسر صنمى وتقتل رجالى ؟ !

فقال : لو كان هذا الصنمُ إلهاً حقاً لاستطاع أن يدافع عن نفسه ،

فكيف تعبدينه وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا ؟ !

فقالت : لأعذبنك عذاباً شديداً .

وأخذت قليلا من الماء . وتلت عليه كلمات ثم رشته به فصار قرداً ، ثم حبسته ووكلت خدمته إلى بعض الخدم سنتين ، ثم أحضرته وسألته :

أتسمع كلامى ؟ !

فقال مشيراً برأسه : نعمْ .

فخلصته من صورته ، وأطعمته واطمأنت إليه . لأنها فهمت من إشارته أنه لا يعصى لها أمراً ، ولكنه انتهز فرصة وأمسك رقبتها بيديه وخنقها و لم يتركها إلا ميتة . ونظر فى مقصورتها فوجد خزانة مفتوحة وفيها سيف ودَرَقةٌ . فأخذهما ووقف بهما على باب القصر فى الصباح ، واجتمع الكبراء أمامه . ودعاهم إلى التوحيد . فأبوا واستكبروا . فأخذ يقاتلهم . وكلما مر وقت من النهار كثرت أمامه الجموع تبغى قتله ، وهو يحاربهم . ويدافع عن نفسه . وإذا بألف ما رد على رأسهم زلزال بن المزلزل نزلوا على القوم بسيوفهم فأبادوا كثيراً منهم ثم صاحوا : الأمانَ الأمانَ ، وقد دخلنا فى دينك ؛ فسكت القتال . وسلم زلزال على غريب وهنأه بسلامته وانتصاره ، وسأله غريبٌ : كيف عَلمت بحالتى ؟ !

فقال : لبثت فى السجن سنتين ، ثم أطلقنى أبى ولم يلبث أن مات ، وورثت مُلكه من بعده ، وكنت لا أزال أذكرك ولا أنساك ، فرأيت فى

المنام أنك تقاتل الملكة جانشاه ، فأسرعت إليك بهؤلاء المردة وكان ما رأيت .

ثم جعل غريب حاكماً على المدينة ، وحمله المردة ، وحملوا ما غنموا من الأموال وطاروا إلى مدينة المارد زلزال ، وأقام غريبٌ فيها ستة أشهر ، ثم رغب فى الرواح ، فحمله زلزال ، وحمل المردة كثيراً من الغنائم والأموال وطاروا ، حتى كانوا فى المدائن فى منتصف الليل ، ولكن غريباً وجد المدينة محاطة بجنود لا يحصون عدا ، فنزل من فوق سطح قصره ، ونادى على نسائه ، فخرجن من المقصورات قائلات : من ينادينا فى هذا الوقت من الليل ؟ !

فقال : أنا غريب زوجكن .

فعرفنه ، وفرحن به ؛ وامتلا القصرُ زغردة وضجيجاً وغناء وتصفيقاً من الجوارى وغيرهن . فجاء الرؤساء مسرعين ليتبينوا هذه الضجة ، فوجدوا ملكهم قد حضر ، ففاجوا فرحين أيضاً ، وجاءوا يهنئونه ؛ ثم سألهم عن هؤلاء الجنود المحيطين بالمدينة فقالوا : إنهم على هذه الحال منذ ثلاثة أيام ، ومعهم إنس وجن ، ولا ندرى ما يبغون منا وما وقع قتالٌ بيننا وبينهم ، وملكهم معهم واسمه مراد شاه .

١٢

كانَ الملك سابور قد بعثَ اثنين من خواصه ليرميا ابنته فخر تاج فى نهر جيحون ، ولكنهم تركاها على شاطئ النهر ، وحرما عليها العودة إلى مدينة أبيها حتى لا يقتلها ويقتلهما معها ، فولت وجهها شطرَ القفار ، سائرةً على غير هدى ، تبغى الحياةَ فى أى مكان ، فعثرت فى سبيلها علىَ واد كثير الأشجار والمياه ، ووجدت فى وسطه حصناً عالى البناء ، فدخلته ، فوجدته مفروشاً بالحرير ، مملوءاً بالأوانى الذهبية ووجدت فيه مائة جارية ، فأقبلن عليها وحيينها ، وهن يحسبنها من جوارى الجن ، ولما سألنها عن حالها قالت : أنا بنت سابور ملك العجم ، وقصت عليهن قصتها ، فقلن لها :

طيبى نفساً ، ولك فى هذا القصر ما تشتهين ، ونحن لك أطوع من بناتك .

فشكرتهن وسألتهن عن صاحب هذا القصر ، فقلن : الملك صلصالُ ابن دال ، وهو يأتى إليه ليلة فى كل شهر ، ثم يغادره إلى قبائل الجان ، لأنهُ الحاكم فيها .

وبعدَ خمسة أيام من قدوم فخر تاج وضعت غلاماً جميلا ، فقامت الجوارى بخدمتها وخدمة ابنها وسمينه مراد شاه ، ثم أقبل صلصال فى موعده ، فاستقبلته الجوارى ، ومعهن فخر تاج ، فلما رآها سأل جواريه

عنها فقصصن عايه قصتها . فغضب لما أصابها . وأشفق عليها ، وقال : اطمئنى ولك عندى ما تشائين . واصبرى حتى يكبرا ابنك مراد شاه ، ثم أذهب به إلى أبيك فأقطع رأسه . وأجلس ابنك على كرسى ملكه . فشكرته فخر تاج ودعت له بالخير وطول البقاء . وبلغ ابنها خمس عشرة سنة وحذق ضروب الفروسية ، ثم جلس إلى أمه فخر تاج ليلة وسألها عن أبيه فقالت :

أبوك غريبٌ ملك العراق ، وأنا بنت سابور ملك العجم ، وحكت له قصتها ، فسألها :

وهل أمر جدى بقتلك وقتل غريب أبى ؟

فقالت : نعم .

فقال : وحياتك يا أمى لأسيرن إلى أبيك . ولأقطعن رقبته ، ولأضعن رأسه بين يديك هدية ومنحة . ففرحت به ودعت له بالعز والهناءة .

وفى يوم خرج فى جيشه قاصداً مدينة جده ، وجعل يغزو ما فى طريقه من المدائن ، ويأخذ منها له أعواناً وجنوداً ؛ فأخذ من شيراز وبلخ ونورين وسمرقند وأخلاط وغيرها حتى كان فى جيش كالبحر الزاخر ، وعسكر به حول مدينة جده ، وصبرَ عن القتال حتى تجىء أمه ، وكان قد بعث من يأتيه بها . ليضع جده مقتولا بين يديها .

وجاء زلزال بغريب فى ذلك الحين ، وسأل عن هذا الجيش فأجيب بأنه جيش نزل فى هذا المكان منذ ثلاثة أيام ولا يعرف عنه شىء .

ولما جاءت فخر تاجَ أجلسها مرادشاه فى خيمته ، وأمر أن تدق



غريب يلتقي بزوجته فخر تاج وابنه مراد شاه

الطبول إيذاناً بالحرب وبدء القتال ، فركب إليه غريبٌ والجنود من الإنس عن يمينه ومن الجن عن يساره وسمع مراد شاه فى الميدان يقول : لا يبرز لى إلا ملككم فإن قهرنى فجنودى له ، وإن قهرته قتلته وملكت الأمر بعده .

وجرت بين الولد وأبيه مبارزة عنيفة انتهت بأسر غريب لابنه مراد شاه ، وهما لا يعلمان من أمر صلتهما شيئاً .

ثم جلس غريبٌ فى خيمته ، وأمر أن يحضر مراد شاه بين يديه ، فلما حضر سأله : كيف تجسر على قتال الملوك وأنت لا تزال حدثاً ؟ !

فقال مراد شاه : إنى معذورٌ يا سيدى ، فقد خرجت أثأر لأبى وأمى من جدى سابور ملك العجم ، فقد أمر بقتل أمى فسلمت وأمر بقتل أبى ، ولا أدرى أسلم من القتل كأمى أم لا ؟

فقال غريبٌ : ومن أبوك وأمك ؟

فقال : أبى غريب ملك العراق ، وأمى فخر تاج بنت سابور ملك العجم ، وهى جالسة فى خيمتى .

فأطرق غريبٌ إطراقة كأنه قد غشى عليه ، ثم التفت إلى أعوانه وقال :

فكوا القيود عن ابنى ، وفلذة كبدى ؛ ثم أجلسه بجانبه وقال : أيمكنك أن تأتينى بأمك فخر تاج ؟

قال : نعم .

ونهض قائماً فبلَغَها في طرفة عين ، وعرفها قصة أبيه . ففرحت ، وقامت مُسرعة .

وفي خيمة غريب التقى الولد بأبيه ، والزوجُ بزوجته ، بعد اليأس والأمد البعيد . ثم آمن جميعهم وآمنت جنود مراد شاه .

ثم أحضر غريبٌ الملك سابور وابنه ، وعرض عليهما الإيمان ، فأعرضا عنه ، فقتلهما غريب . وأجلس ابنه مراد شاه على عرش جده . وبعث غريبٌ عمه الدامغ ملكاً على العراق ، وأقام هو مع ابنه حتى جاءهم هازم اللذات وسبحان من يرث الأرض ومن عليها .



علاء الدين والمصباح العجيب

١

في مدينة من مدن الصين العظيمة كان يسكن خياطٌ يدعى مصطفى، وكان رجلاً رقيقَ الحال ، قليل المال ، فقيراً ، يعيش عيشةً ضَنْكاً ؛ وكان ما يكسبه في صنعته كل يوم لا يكادُ يكفي حاجاته الضرورية ، ولا يستطيع أنْ يشترى به ما يسدُّ حاجة أسرته مع أنَّ الأسرةَ كانت قليلةَ العدد ، فلم يكن له غيرُ زوجة وولد واحد ، اسمه علاء الدين .

وكان علاءُ الدين كسلانَ مهملاً ، لا يعنيه أمرٌ ، ولا يشغله شاغلٌ ؛ وكان غلاماً عصَبياً ، حاد المزاج ؛ لا يأبه بأوامر والديه ، ولا يقيم لنواهيهما وزناً . يخرج كل صباح ، ويقضى اليومَ كله في

اللعب واللهو مع لداته فى الشوارع والميادين العامة ولا يعودُ إلى البيت ، ولا يفكر فى أهله إلا حينَ يجوعُ !

ولما بلغ السن التى يتعلمُ فيها الغلمانُ صناعةً ، أخذه أبوه إلى دكانه ، وبدأ يعلمه صنعةَ الخياطة ، ولكنها لم تجدْ فى نفس الصبى مكانةً ، أو ميلاً إليها ، وكان يساقُ إلى تعليمها سوقاً ، وكان ينتهزُ فرصةَ ترك والده الدكانَ لشأن من شئونه ويفر إلى حيثُ يلتقى بقرناء السوء ، ويقضى بقيةَ اليوم فى العبث كعادته .

وحاول والده إصلاحه باللين تارةً وبالعنف تارةً أخرى ، ولكن ذهبت مجهوداته أدراج الرياح . فحز ذلك فى نفسه وزاد فى همه ، وظل يفكرُ فى حالة ابنه الوحيد حتى برح به الهمُّ ، فاعتلت صحته ، ولم يكتب اللهُ له الشفاءَ ، فمات بعد بضْعة شهور من مرضه ، ذاقت فى أثنائها زوجه كثيراً من الضيق والعنت وشظف العيش وسوء الحال .

وبعد أن مات الوالدُ أطلق علاء الدين لنفسه العابثة المستهترة العنان ، وعاد إلى الاختلاط بقرنائه من إخوان السوء ، ولم يعدْ يذهبُ إلى دكان أبيه ، فاضطرت الأم المسكينةُ أن تعملَ لتكسبَ قوتَها وقوتَ ذلك الولد العاق المستهتر !

وظلت الأم تعملُ وتكدحُ ، وظل الزمنُ يمر حتى كانت سن علاء الدين خمس عشرة سنة ، ولكنه لم يعتبر ولم يرعو ، ولم يخجل من أن أمه هى التى تعملُ لتحصّلَ له رزقه ، وهى التى تطعمه وتكسوه .

وبينما كان يلعبُ ذات يوم فى شارع من شوارع المدينة كعادته

مع أمثاله من الصبية العابثين المستهترين — مر بهم رجلٌ غريبٌ ، فما كاد يلمحهُ حتى وَقف ، ثم اقترب منه ، وتفرسَ فيه .

وكان هذا الغريب ساحراً من السحرة الراسخين فى العلم ، وكان قد هبط على بلاد الصين منذُ يومين بعد سفر طويل ، ورحلة شاقة مضنية ، قطع فيها المسافةَ بين المغرب الأقصى وتلك المدينة التى يعيش فيها علاءُ الدين لأمر يبتغيه فى الصين ، ولما أيقن أن ملامح علاء الدين ودله وشكله تنطبقُ على صفات الغلام الذى لا بد له من الاستعانة به والاعتماد عليه فى عمله الذى جاء من أجلِه من بلاد بعيدة متكبداً سفرَ آلاف الأميال ، أخذ الساحرُ المغربى يسأل بعضَ لدات علاء الدين عن اسمه ، واسم أبيه ، وصناعته ، وأسرته ، وما يعرف عنها .

فعل ذلك كله من غير أن يثيرَ نحوَه ريبة ، أو يفطنَ إليه علاء الدين . ولما عرف ما يريدُ عن علاء الدين نحا نحوه ، وسلم عليه بشوق ، ثم انتحىَ به جانباً وقال له : أكان أبوك يدعى مصْطفى الخياط حقاً ؟ ! !

فقال علاء الدين :

أجلْ يا سيدى ! ولكنه مات منذُ سنين .

فلما سمع الساحرُ الماكرُ ذلك ، احتضنَ علاءَ الدين ، وأجهشَ فى البكاء ، وأخذ يقبله ، ويضمه إلى صدره ، ويربتُ على كتفيه . . . ! !

فدهشَ علاء الدين ، وحاولَ الإفلاتَ منه ، ولكن الساحر

قال له : يا بنى ، لا تعجبْ مما فعلتُ ، فأنت ابن أخى ، وإنى عمك . أما عن الصين . . . فقد هجرتها قبل ولادتك ، وكان الشوقُ يعاودنى كثيراً لرؤية أخى . فحضرتُ وصادفتك ! لقد عرفتك يا بنى من أول نظرة لما فيك من الشبه القوى بأبيك ، ولكن داخلنى الشكُ . لأن الناس تتشابه ؛ فلما سألتُ إخوانك ، وعلمتُ منهم أنك ابنُ مصطفى أخى عرفت أن فراستى صدقتْ ، وفرحتُ للقائك . وزاد شوقى إلى رؤية أبيكَ . ولكن الدهر الغادرَ حرمنى من أمنية عزيزة سافرت من أجلها آلافَ الأميال . ولكن اللهَ جل جلالهُ خلقك صورةً من أبيك ، لأرى الماضىَ الحبيبَ ، وأباك العزيزَ كلما نظرتُ إليك !

ثم وضع يده فى جيبه وأخرجَ حفنةَ دراهمَ ووضعها فى يد علاء الدين وقال له :

عدِ الآنَ إلى أمك . وأخبرها أننى سأزورها غداً لأرَى البيتَ الذى كان يسكنه أخى . فتعاودنى ذكرى أيام الصبا التى كنا فيها لا نفترق إلا قليلا .

وطار علاءُ الدين إلى أمه فرحاً بما أعطاهُ عمه المزعوم من نقود . وقال لها : أماه . . . ! ألى عم ؟ ! !

فقالت أمه : لا يا بنى ؛ ليس لك عم ولا خالٌ !

فقال علاءُ الدين :

كيف يكونُ ذلك وقد التقيتُ منذ دقائقَ برجل ، قبلنى عند ما سألنى عن اسم أبى وأخبرته به ، ثم بكى ، وأعطانى هذه النقودَ فى يدى ،

وقال لى : إنه عمى ، وإنه غادرَ البلادَ منذُ سنين ، وقبلَ أن يتزوجَ والدى بك ، وحملنى السلامَ إليك ، ووعد بزيارتنا ليرى المكانَ الذى كان يسكنه والدى ، والذى لفظ أنفاسه الأخيرة فيه .

فقالت الأمُ وقد تملكها الدهشُ :

إننى واثقةٌ من أنك لا عم لك ولا خال !

وفى اليوم التالى التقى الساحرُ بعلاء الدين ، وكان يلعبُ مع رفقائه فناداه ، وسلم عليه بشوق وحنان ، وأعطاه دينارين ، وقال له : اذهبْ بهذين الدينارين إلى أمك ، وأخبرها أنى آت لزيارتها الليلة ، لأتناولَ طعامَ العشاء معكما . ثم طلب منه أن يدله على البيت حتى لا يضل الطريق إليه .

سار علاءُ الدين إلى البيت ، وبجانبه عمه المزعومُ ، حتى اقتربا منه ، وأشار إليه علاءُ الدين . فرجع العمُّ ، وسار ابنُ الأخ إلى البيت ودخل على والدته ، وأعطاها الدينارين ، وقص عليها القصةَ .

فقالت الأم لابنها :

إنى أعجبُ لهذا الرجل ، وإن الشك ليساورنى أنه ليس عمك ، وأنه يريدُ بك أمراً ، لأن أباك لم يذكر لى قط أنه كان له أخٌ على حين أنه كان يذكرُ أباه وأمه ، ويقص على بعضَ النوادر التى حدثتْ له مع أحدهما أو كليهما فى صباه ؛ وقد يكونُ شكى لا أساس له . لأننا فقراء ، وليس لنا مالٌ يطمعُ فيه هذا الرجلُ ؛ فلنتوكل على الله ، ومنْ توكل على الله كفاهُ شرورَ الناس .

وخرجت من البيت ، واشترتْ ما تحتاج إليه من لحم وخضر وفاكهة ، ثم اقترضت قدراً وعدداً من الصحاف والأوانى الأخرى ، وشرعت تطهى الطعامَ .

ولما انتهت من إعداد العشاء قالت لعلاء الدين :

لم يأت الضيفُ ، وأخشى أن يكونَ قد ضل الطريقَ ، فاذهب وابحثْ عنه . وأحضره لنرى ما يكونُ ، فلعله يكونُ سبباً فى إراحتى من العناء الذى أنا فيه .

وما كادت تتم حديثها حتى دق الساحرُ بابَ الدار ، فأسرعَ علاءُ الدين إلى فتحه . فرأى عمه بالباب ، فأذن له بالدخول فدخل يحمل أصنافاً من الفواكه . وأسرعَ علاءُ الدين إلى عمه المزعوم ، وحمل منه الفاكهة التى لم يذقها من زمان . وأسرعَ العم إلى أم علاء الدين وسلم عليها باحترام وأدب ، وأخذ يبكى على موت أخيه ، فهاجتْ هموم الأم وبكت أيضاً . وبعد أن بكيا ما شاءا أن يبكيا ، سكتتا عن البكاء ، ثم جلسا يتحدثان.

قال الرجل : يا أختاه : لا تعجبى من أنى لم أرك ، أو أنك لم ترينى من قبلُ ؛ وقد يكون أخى لم يحدثك عنى ، لأنى غادرتُ الوطنَ منذُ أربعين سنةً . بعد خلاف شديد وقع بينى وبينَ شقيقى ، واللهُ يعلمُ أنى كنتُ الظالم المعتدىَ ؛ وأخشى أن يكون أخى لم ينسَ إساءتى له ، فمات وهو غضبان على . . . ! وقد سافرتُ إلى بلاد الهند ، وفارسَ والعراق ، وجزيرة العرب . وسوريا ، ومصر . وكنت أمكثُ فى كل قطر

من هذه الأقطار بضع سنين، ثم أغادرهُ إلى غيره بعد أن أكونَ قد اختلطتُ بأهله وناسه، وزاولتُ عملا من الأعمال المربحة المثمرة، وكونتُ ثروةً طيبةً . ومكثتُ فى مصر عشرَ سنين، ثم تركتها وسافرتُ إلى المغرب الأقصى، حيث استوْطنتُ، وأثريت؛ ولكن نازعتنى إلى الوطن نفسى، واشتقتُ إلى أهلى وَوطنى، فبعتُ كل ما أملك: ورحلتُ إلى الوطن العزيز؛ وكان مما حز فى نفسى، وأثار لواعج همى وفاةُ أخى؛ ولكن الذى خفف عنى بعضَ ما أجدُ من اللوعة والألم أنىَ وجدت أخى فى ابن أخى؛ومن ْأنجبَ ابناً مثلَ علاء الدين لم يمتْ .

ولما رأى الساحرُ المغربى أن أم علاء الدين خدعت بحديثه، وتأثرت أيما تأثير عند ذكر زوجها؛ غير مجرى الحديث؛ فالتفت إلى علاء الدين وسأله :

ما صناعتك التى تكسبُ منها رزقك يابن أخى ؟ ! !

فلم يجب علاءُ الدين؛ بل أطرقَ؛ وأجابت والدتهُ بقولها :

إن علاء الدين عاطلٌ؛ لا عملَ له . . . ! إن أباه حاولَ بكل ما أوتىَ من حكمة وقوة أن يعلمه صنعةَ الخياطة ولكنه لم يفلحْ : ذهب مجهوده هباء . ومنذ وفاة والده لم يعمل شيئاً نافعاً على الرغم من توسلاتى إليه ونصائحى الكثيرة له؛ وعلى الرغم من أننا نعانى ما نعانى من أنواع البؤس، وصنوف الشقاء؛ حتى اضطررْتُ إلى أن أعملَ وأكدح لأحصل على ما أقوتُ به نفسى ويأكل هو من جانبى . وكل ما يصْنعه هو اللعبُ مع قرناء السوء فى الطرقات العامة كما رأيته أول مرة . وإنى عازمةٌ

على طرده من البيت إذا لم يقلعْ عن هذا المسلك الشائن ، فعسى أن يضطره ذلك للعمل على كسب قوته .

وبعد أن أتمتْ أم علاء الدين حديثها انفجرت باكيةً ، وظلت تنتحبُ وتشهقُ حتى أوْشكت أن يُغمى عليها .

فتأثر الساحرُ ، وقال لعلاء الدين :

يا بنَ أخي ؛ إن مسلكك هذا شائنٌ ، ولا يليقُ بك . لا بد أن تفكر في وسيلة لتساعدَ نفسك وتعول أمك ، وإن الصناعات لكثيرةٌ ، فقد يكون ميلك الطبيعي إلى غير صناعة والدك ، وإني أعدُ أن أسعى في مساعدتك ، وأعملَ على تدبير عمل شريف لك ؛ فإياك واللهو يا بني ، والبسْ لباسَ الجد ، وانظر إلى الحياة نظرةَ الرجل المسئول عن نفسه وعن أمه وعن ذكرى أبيه وعائلته ؛ وإذا كنتَ لا تريدُ أن تتعلمَ صناعة فإنني مؤجرٌ لك دكاناً ؛ ومعده لك بكلِّ أنواع السلع التجارية من منسوجات حريرية وثيابية . . . ! فأخبرني بصراحة عن رأيك في اقتراحي هذا ، وكنْ واثقاً من أنني مستعدٌ لمساعدتك في كل ما ترغبُ وتريد .

ولقد لقي اقتراحُ الساحر هوى في نفس علاء الدين الذي كان يبغض العملَ وقال له : إنني أميلُ بطبيعتي إلى هذا النوع من العمل الذي اقترحته ، وإني أشكرُك يا عمي لعطفك ، وسوف لا أنسى لك هذا الفضلَ العظيم مدى الحياة .

فقال المغربي : حسناً ؛ سأصحبك غداً إلى السوق ، وأشتري لك

ملابس قيمةً لاتقل عن ملابس أكبر التجار فى المدينة ، ومن ثم تأخذ فى إعداد المحل التجارى .

أما الأم فإنها بعد هذا العطف السابغ على ابنها ، امحى من نفسها ما كان يساورها من شك فى أن الغريب عم لابنها ، واغرورقتْ عيناها بدموع الفرح والسرور ، وتقدمتْ إليه ، وشكرتْ له نياته الحسنة ، وأعظمتْ ما تبرعَ به من المساعدة الكريمة لابن أخيه .

ثم وجهت الكلامَ لابنها تحضهُ على أن يكونَ خليقاً بنسبته إلى هذا العم الكريم .

ثم قامت وأعدت المائدة ، ودعت العم والابنَ لتناول طعام العشاء ، وفى أثنائه تجاذبوا أطراف الحديث من قديم وحديث .

ولما انتهى العشاءُ انصرفَ العم .

٢

وجاء الساحرُ فى اليوم الثانى . واصطحب علاء الدين إلى أكثر من متجر فى المدينة لبيع الملابس المختلفة . وطلب من علاء الدين أن يختار ما يحلو له . . . واختار علاءُ الدين ، ودفع العم الثمن .

ولبس علاءُ الدين الملابسَ الجديدةَ ، فانشرح صدره ، وشكر عمه الذى قال له :

الآنَ وقد أوشكتَ أن تكونَ من زمرة التجار فينبغى أن تختلطَ

بالتجار لتعرفَ منهم طرقَ التجارة وشئونها المختلفة .

ثم أخذ يطوفُ به على أكبر المساجد وأفخمها ، وعلى الفنادق الكبيرة التى ينزل بها أعظم التجار ، وكان خاتمة مطافه قصرُ السلطان ، ثم عاد به إلى المنزل الذى يقيم فيه ، وأعد وليمةً دعا إليها التجار الذين تعرف بهم ليقدم ابنَ أخيه المزعوم لهم .

ولقد ظلت هذه الوليمةُ إلى ما بعد منتصف الليل ، ثم انصرف التجارُ ، واستأذن علاء الدين فى الانصراف . ولكن عمه لم يتركه يذهبُ منفرداً ، بل رافقه إلى بيته . ولما وصلا وشاهدت الأم ابنها فى الملابس الفاخرة ، وفى زى التجار لم تستطع أن تضغط عواطفها من شدة الفرح ، واستخفها السرورُ ، فأطلقت فى الهواء زغرودةً عاليةً ، دوت لها أركانُ البيت ، وسمعها الجيرانُ ، فجاءوا مسرعين يستطلعون الخبر ، فلما رأوا ما عليه علاءُ الدين من سمت التجار أقبلوا عليها يهنئونها بما صار إليه ابنها من حسن الحال .

وبعد أن انصرف الناسُ أقبلت على العم تشكر له حسن صنيعه .

وفى صباح اليوم الثالث جاء الساحرُ . ودعا علاء الدين إلى مرافقته ليقضيا سحابةَ اليوم متنزهين بين المروج الخضراء فى الريف الجميل ، وبذلك يكونُ قد رأى وعرف ما ينبغى لفتى مثله أن يرى ويعرفَ .

وبعد ذلك يشترى له المحل التجارى الذى وعده أن يشتريه له .

خرج علاءُ الدين مع هذا العم ؛ ولما وصلا إلى أطراف المدينة بدآ يمران على قصور الأثرياء ؛ وكانا كلما مرا بقصر وشاهدا ما فيه من

حدائقَ غناءَ منسقة أحسن تنسيق قال المغربى لعلاء الدين :

أيعجبك هذا القصرُ يا بنى ؟ !

فيبدى علاء الدين إعجابه به ، ويطرى ما فيه من محاسن . وصارا يبعدان من المدينة شيئاً فشيئاً ويوغلان فى الريف .

وليتم الساحرُ خطته أظهر التعب فقال لعلاء الدين :

تعالَ يابنَ أخى . فلعلك لقيت من سيرنا نصباً مثلى .

ودخلا إحدى الحدائق وجلسا فيها . ليستريحا ثم أخرج الساحرُ من كيس كان يحمله بعض الفطائر والفاكهة . وكان يحدثه فى أثناء جلوسه عن مستقبله الزاهر وعن سلوكه فى المستقبل ؛ ويعظه بتغيير خطة حياته ، وترك قرناء السوء . وأن يتخذ أصحاباً جدداً من العقلاء والحازمين والمجدين من الناس !

ولما أكلا حتى شبعا . وشربا حتى رَوِيا — نهضا واستأنفا سيرهما حتى وصلا إلى واد بين جبلين قليلى الارتفاع .

هذا الوادى كان المكانَ الذى جاء إليه الساحرُ ونزل فيه أول ما نزل حينَ مجيئه إلى بلاد الصين . ورحلته الطويلةُ الشاقةُ المرهقةُ كانت من أجل هذا الوادى لأن فيه ما يسعى للحصول عليه !

فقال لعلاء الدين : إننى سأريك هنا عجائبَ ستشكرنى بعدَ أن أريك إياها ؛ فاجمع كل ما تجده من حطب لتوقد ناراً .

ووجد علاءُ الدين حطباً كثيراً عن يمينه وعن شماله ، فجمع منه حزمة كبيرةً ووضعها حيثُ أمرَه الساحرُ الذى أوقد فيها ناراً . ثم

رمى فى النار نوعاً من البخور كان يحمله فى جراب معه ، وكان يتلو فى أثناء ذر البخور فى النار كلمات لم يفهمها علاءُ الدين .

ولم يتم الساحرُ كلماته حتى انفتحت الأرض أمامه ، وظهر حجرٌ مثبتٌ به حلقةٌ من النحاس ، ولقد ذعر علاء الدين ذعراً أوشك أن يفقده صوابه ، وهم بالهرب ولكن الساحرَ أمسك به وعاجله بلطمة على وجهه ، وصفعه على قفاه فسقط على الأرض !

ونهض علاء الدين وهو يرتعدُ خوفاً . والدموع تنحدر من عينيه ، وقال للساحر : ماذا جنيتُ يا عمى حتى تضربنى هذه الضربةَ القاسية ؟ !

فقال الساحرُ فى حدة وغضب ، والشرر يتطاير من عينيه : إننى فى منزلة والدك ، فلا ينبغى لك أن تعارضنى أو تراجعنى فى أمر من الأمور .

وأدركَ الساحرُ أنه تسرع فى إساءة معاملة علاء الدين . فألانَ له القولَ ، وابتسم ابتسامةً صفراءَ مصطنعة . وقال له :

يابن أخى : إننى أعملُ لمصلحتك وخيرك . فلا تخالفنى فيما آمرك به ، واعلم أن تحت هذا الحجر كهفاً . وأن فى جوف الكهف كنزاً مدفوناً ، والذى أعرفه أن هذا الكنزَ لك . وستصبحُ بعد الاستيلاء عليه أغنى من أغنى ملك فى العالم . وأنت وحدك المأذون برفع هذا الحجر . ودخول الكهف . وأخذ الكنز . وإذا رام ذلك أحدٌ غيرك لا يفلحُ : فافعل ما آمرك به . وعلى إطاعتك إياى : وتنفيذ ما أشيرُ عليك به — تتوقفُ سعادتك وغناك . وسعادتى وغناى .

دهش علاءُ الدين لما رأى وسمع . ونسىَ ما أصابه من الساحر

الماكر ، وقال له : حسناً ياعماه ! بماذا تأمرُنى؟ إنى سامعٌ ومطيعٌ .

فاحتضن الساحرُ علاء الدين من شدة الفرح ، وقبل جبينه ، وقال له :

إنى أكادُ أطيرُ فرحاً لما ينتظرنى وينتظرُك من مال وجاه ، ولما ستجدُ من سعادة وعز يابن أخى ؛ اقبض على هذه الحلقة ، وارفع هذا الحجرَ .

فقال علاءُ الدين : يخيلُ إلى ياعماه أننى لا أطيق رَفعه لأنه ضخمٌ وثقيلٌ ! ينبغى أن تساعدنى حتى يمكنَ رفعه .

فقال الساحر :

لا سبيلَ إلى مساعدتك ، لأننى إذا مددتُ يدى إلى الحلقة خاب سعيك . اقبض على الحلقة ، وارفع الحجرَ ، فستجده سهلاً هيناً .

ففعل علاءُ الدين ما أمره به الساحرُ ، ومد يده إلى الحلقة ، وجذب الحجرَ إليه ، فارتفع فى يده بسهولة أذهلته ، ووضعه جانباً .

ولما رفع علاءُ الدين الحجرَ ظهر سلم نازلٌ إلى كهف على بعد مقداره أربع أقدام يؤدى إلى باب .

وقال الساحر لعلاء الدين :

اهبط فى هذا السلم يابنى ، وافتح البابَ ، ثم ادخلْ وستجد أمامك بهواً مقسماً إلى ثلاث رَدهات واسعة ، وفى كل رَدهة ستجد أربعةَ أحواض كبيرة من النحاس مملوءة بالذهب والفضة فلا تحاول الاقترابَ منها . وإذا ما دخلت الردهةَ الأولى فشمر ثيابك وامرُق منها إلى الثانية ، ثم إلى الثالثة من غير توقف ، وحاذرْ أن تلمس أحواضَ الذهب والفضة

بيدك ، وأن تلمسها بثيابك ؛ لأنك إن لمستها بيدك أو مستها ثيابُك ضعفتَ فى الحال . وانتابتك نوبةٌ عصبيةٌ جعلتك لا تقدر على حمل شىء منها ؛ وفى آخر الردهة الثالثة بابٌ ، إذا مرقتَ منه يوصلك إلى حديقة بها أشجارُ الفاكهة . وفيها من كل نوعٍ زوْجان ، محملة بالثمر الذى تكاد تنوءُ الأشجارُ بحمله . اخترق الحديقةَ تجدْ فى نهايتها استراحةً فى وسط إحدى حيطانها فجوةٌ بها مصْباح مضىءٌ . خذ المصباحَ وأطفئه . ثم اخلع فتيلته ، واطرحها على الأرض واسكبْ ما فيه من زيت وضعه فى جيبك ، وأحضره لى . ولا تخفْ أن تلوث بقايا الزيت ثيابك لأنه ليس زيتًا حقيقيا . ولأن المصباحَ يصبحُ جافًا بمجرد إفراغ الزيت منه .

ولما انتهى الساحرُ الماكرُ من حديثه . خلع خاتمًا من أصْبعه ، وأعطاه لعلاء الدين وقال له :

إن هذا خاتمٌ مسحورٌ ، يحفظك من كل سوء ما دمتَ مُطيعًا لى ولا تعصى لى أمرًا . فسرْ يا بنىَّ على بركة الله ، وليكن رائدك الإقدام والشجاعةُ ، وسوفَ نكون من أسعد الناس وأغناهم .

٣

هبط علاءُ الدين فى السلم ، وفتح البابَ ، فوجد الردهات الثلاثَ كما وصفها الساحرُ ، واخترقها بحذر كما أوصاه ضنًا بنفسه على الموت ، واخترق الحديقةَ من غير أن يلوىَ على شىء ، وتناول المصباحَ ، وأفرغ



علاء الدين فى الكنز وقد وجد المصباح العجيب

زيته، ونزع فتيلته ورماها، ووضع المصباح فى جيبه ؛ ولكنه حينَ انحدر من الشرفة إلى الحديقة وقف فيها قليلاً ليلقىَ نظره على أشجارها وما فيها من ثمر وزَهر ؛ فألفاها ذاتَ ألوان عجيبة : فهى تحملُ زهراً أبيضَ ناصعاً ، أو أحمر قانياً ، أو أصفر فاقعاً ، أو بنفسجياً زاهياً ، أو أزرق أو أرْجوانياً . أما الأثمارُ فهى ذاتُ أشكال وحجوم مختلفة ، تتدلى من فروع الأشجار ناضجةً مغريةً ؛ وهى فى متناوَل اليد والفم .

ولكن علاء الدين لم يفهم قيمةَ هذه الأزهار والأثمار العجيبة، فهو لم يألفْ هذا المنظرَ ولم تقع عينه على مثله من قبل . وكان أحب شىء لديه من كل هذا التين والعنب، ومع ذلك فقد دفعه الفضولُ إلى قطف بعض الأزهار والثمار ، ووضعها فى جيوب جلبابه، وبين طيات ثيابه .

وبعد أن حمل علاء الدين معه ثروة لا يعرف مقدارها اخترق الردهات الثلاث ؛ وسرعانَ ما وجدَ نفسه أمام الباب الخارجى حيث رأى الساحر المغربى فى انتظاره على أحر من الجمر .

وكان علاءُ الدين قد شعر بتعب شديد من جراء انفعالاته النفسية الشديدة التى نشأت من شعوره بالوحدة والوحشة ، وحذر الموت ، فقال للساحر بمجرد وصوله إلى السلم :

امدد إلى يدك يا عماه لتساعدنى فقد لقيتُ مما قمتُ به نصباً شديداً ، وتعباً مرهقاً، ورجلاى تعجزان الآنَ عن حملى، فخذ بيدى ، واجذبنى إليك .

فصاح به الساحرُ المغربى : أعطنى المصباحَ أولا ، فقد أصابك

بعض العنت والضيق ، وظهرت على وجهك صفرةُ الخوف !

فقال علاءُ الدين : لا أستطيع الآنَ ، وسأعطيك إياه عند صعودى إليك!

فأصر الساحرُ على أخذ المصباح قبل مد يده إليه ، وإعانته على الخروج .

ولكن علاء الدين الذى كان قد ملأ جيوبه بالأثمار العجيبة ، لم يكن سهلاً عليه أن يخرج المصباح من جيبه ، لأن الثمار موضوعةٌ فوق المصباح ، فلا يمكنُ إخراجه إلا بعد إخراج الثمار أولاً .

وظل الساحرُ على إصراره ألا يعينَ علاءَ الدين على الصعود إلا إذا سلمه المصباحَ ؛ وظل علاء الدين مصراً على ألا يسلم المصباحَ إلا بعد أن يخرج ، وأنهم الساحر أن المصباح صائر إليه ، فلا فرق بين أن يأخذه بعد صعوده أو قبله وفى أخذ بعد صعوده اطمئنانٌ لنفسه ، وراحةٌ لخاطره .

اشتد غضبُ الساحر من عناد علاء الدين ، وإصراره على رأيه . وفى ثورة غضبه رمى بعضَ البخور فى النار التى كانت لا تزالُ متقدةً ؛ وتلا كلمتين ؛ وأدار يده حول النار دورتين ؛ وما كاد يفعلُ ذلك حتى تحرك الحجرُ الذى كان يسد الفتحة العليا إلى مكانه فسدها ، ثم أهالَ عليه الترابَ كما كان من قبل ! .

لقد ظهر لعلاء الدين عند ذلك بوضوح أن هذا الرجلَ لم يكنْ عما له ، وتذكر شك والدته واعتقدَ أنه لم يكن إلا ساحراً كان يريد الخير لنفسه ، وتسخيره فى الوصول إلى ما يريدُ أن يصل إليه ، وإن أصابه فى سبيل ذلك شرعظيمٌ ، ثم يغدر به ، ويتركه وحاله .

والحقيقةُ أن هذا الساحر الماكرَ عرف فى كتب السحر التى يملكها خبرَ المصباح ، وعظيمَ نفعه وكبير فائدته ، وعرف أن منْ يستولى عليه تتفتحُ أمامه خزائنُ الأرض .

وعرف أنه موجودٌ فى الصين فى بلدة كذا ، فى مكان كذا ، وطريقةُ الحصول عليه تكون بفتحْ الكهف الذى فى داخله المصباح .

وعرف أن الكهفَ لا ينفتح إلا على يد غلام ذكرت أوصافه فى الكتب ، وطابقت هذه الأوصافُ أوصافَ علاء الدين .

وعرفَ أن لا فائدة من المصباح إذا استولى عليه غصباً ، فلا بد أنْ يقدمه له الغلامُ الذى ينفتحُ الكنزُ على يديه طواعيةً واختياراً .

ولهذا سر كثيراً حينَ رأى علاءَ الدين ، ورأى فيه الصفات التى ذكرت فى كتب سحره فادعى أنه عمه ، وكان يأملُ بما أغدق عليه من العطايا أن يكونَ أطوعَ له من بنانه .

وكان ينوى شراً بعلاء الدين بعد أن يأخذَ المصباحَ حتى لا يذيعَ سره ، ولا يشيعَ أمره بين الناس ؛ ولذلك صمم على أن يحبس علاء الدين المسكينَ فى الكهف الذى كان يعتقد أنه قبرُه إلى يوم القيامة . . . ولكن خاب أمله بإصرار علاء الدين ألا يعطيه المصباحَ إلا بعد إخراجه ، ثم بإرجاعه الحجرَ على الفتحة ، وإغلاقها ، وحبس علاء الدين فى الكهف .

ولما أيقن الساحرُ أن لا أملَ له فى الكنز ، وخاب سعيه — رجع إلى بلاد المغرب متجنباً الاقترابَ من بلد علاء الدين ، لئلا يمر به أحدٌ رآه خارجاً مع علاء الدين فيسأله عن الغلام اليتيم ، فلا يستطيعُ أن يجيبَ .

٤

أغلق الكهفُ على علاء الدين ، وعم المكانَ الظلامُ ، فذعر علاء الدين ذعراً شديداً ، وصاح من الخوف : ارفع الظلامَ عنى يا عماه !

أخرجنى من هذا السجن المظلم يا عماه ! إننى على استعداد لإعطائك المصباح .

ولكن صوتَ علاء الدين ذهب سدى ، فلم يسمعه أحدٌ ؛ فهبط فى السلم عازماً أن يدخلَ إلى الحديقة حيث الضوءُ والاتساعُ والهواءُ والماء والأزهار والثمار ؛ فوجد البابَ الذى كان مفتوحاً بقوة السحر مقفلاً بأثره أيضاً ، فازداد خوفهُ وهلعه ، وارتفع صياحه ، ثم لم يلبث أن أدركه اليأسُ فجلس على إحدى درجات السلم منتظراً الموتَ إذا جاء أجله . وبدأ يضرب كفاً بكف ويصيحُ : لا حولَ ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ! لم أعمل فى دنياى شيئاً ، ولكن أمى غضبانة على ، فهل يوقعنى غضبها على فى هذا الضيق ؟ ! !

وعزم فى نفسه أنه لو نجاهُ الله لكان لها أطوعَ من بنانها .

وفى حركة من حركات يديه اللاشعورية لمست يده اليمنى الخاتم المسحورَ الذى وهبه له الساحرُ ، وكان يلبسه فى بنصر يده اليسرى ، فظهر فجأةً عفريتٌ من الجن ، طويل كالنخلة ، بشعُ الخلقة ، ينبعث

من فمه دخانٌ ولهبٌ ، ويخرج من عينيه شررٌ ؛ وصاح صيحة زلزلت منها الأرضُ ، وقال :

ماذا تريد منى ؟ إنى مستعدٌ لطاعتك وتلبية أوامرك ، إنى خادمُ كل منْ يملك الخاتمَ الذى فى يدك ، وأنا وأعوانى طوعُ أمرك ، ورهن إشارتك ؛ فمرنى بما تريد .

ولو كان علاءُ الدين فى غير هذا المكان ، وفى غير هذا الوقت العصيب ، لتملكه الفزعُ وضاع صوابهُ وغاب عقلهُ عند رؤيته هذا المارد الهائل ؛ ولكن ما كان فيه من يأس ملأ قلبه شجاعةً ، فقال له فى رباطة جأش ، ومن غير تردد :

كنْ منْ تكون ، فلتخرجنى من هذا المكان اللعين أولا ، ثم نرى بعد ذلك ماذا نريد منك .

فما إن انتهى من كلامه حتى وجد نفسه فى المكان الذى كان ينتظرُه فيه الساحر ، فنظر يميناً وشمالاً فلم يجدْ أثراً للكهف ولا للحجر ذى الحلقة ، ولم يجدْ فيما حوله من الأرض ما يدل على حدوث انفلاق فيها أو انشقاق ، فسجدَ لله شكراً أن هيأ له سبيلَ النجاة ، ثم نهض وسار إلى بيته مسرعاً .

ولما وصل إلى البيت ، وفتح له البابُ ، خر مغشيًّا عليه من شدة الجوع ، ومن أثر المجهود الذى بذله ، والأهوال التى مرت به ، والانفعالات النفسية التى انتابته . ولما أفاق من غشيته ، ورجع له عقله ، نهض بمساعدة والدته التى كانت فى حالة يرثى لها لما حدث له من إغماء .

ولما سألته عن سبب غيبته قص عليها قصته من أولها إلى آخرها ؛ فدعت على الساحر اللعين ، وصبت عليه اللعنات . وقالت له :

إن قلبي كانَ يحدثني بأنه خادعٌ مكار ؛ فاحمد اللهَ القديرَ على أنْ نجاك من شره .

وقدمت الأم لعلاء الدين بعضَ الطعام ، فأكل ما استطاع أن يأكلَ ، ثم نام نوماً عميقاً لم يفقْ منه إلا قبيلَ ظهر اليوم التالي . ولما أفاق شعر بجوع شديد ، فطلب من أمه أن تحضرَ له طعاماً ، لأن عصافيرَ بطنه تزقزق من شدة الجوع .

فقالت أمه : واأسفاه يا بني ! ! ليس في البيت كسرةُ خبز أقدمها لك ، فقد أكلنا أمس كل ما في البيت ، ولكن عندي غزلٌ قد صنعتهُ اليومَ ، وسأحمله إلى السوق لأبيعه وأشترى بثمنه طعاماً لغذائك .

فقال لها علاءُ الدين :

يا أماه ! لا داعي لبيع غزْلك الآنَ ، ولكن أحضري لي المصباح الذي أعطيتك إياه أمس ، وسأذهب أنا إلى السوق لأبيعه ، وأشترى بثمنه طعاماً قد يكفينا وجبتين ، وقد يكفينا ثلاثَ وجبات .

أحضرت أم علاء الدين المصباحَ ، ونظرت إليه ، ثم قالت لعلاء الدين :

إن هذا المصباح وسخٌ جداً ويحتاجُ إلى تنظيف ؛ ولو أننا أزلنا ما عليه من أوساخ لرغبَ فيه الشارون ، ولقدروه بثمن أعلى !

ثم جاءت الأم بشيء من الرمل والماء ، وجلست لتدعك المصباحَ وتنظفه ، ولكن ما كادت تضعُ قليلا من الرمل عليه ، وتدعكه — حتى

ظهر أمامها فجأةً ماردٌ عظيمُ الجثة ، بشع الخلقة ، قبيحُ المنظر ، وقال لها بصوت كهزيم الرعد :

ماذا تريدين منى ؟ إننى خادمك المطيع المستعد لتلبية جميع أوامرك؛ ولو أمرت أن أزحزح جبلاً من مكانه لفعلتُ .

خرت أم علاء الدين مغشياً عليها من هول ما رأت ؛ أما علاء الدين الذى سبق أن رأى هذا المنظرَ الرهيب فى الكهف ، فلم يدهش ، ونهض واختطف المصباح من أمه ، وقال للمارد: إنى جائعٌ ، فأحضر لى طعاماً !

اختفى الجنى فى الحال ، وعاد بعد دقائق معدودة يحمل صينيةً من فضة عليها اثنا عشر طبقاً ، كل طبق مغطى بغطاء من المعدن نفسه ؛ وفى هذه الأطباق ما لذ وطابَ من أصناف الطعام ، وفيها أنواعٌ مختلفة من السمك واللحم والخضر مطهية طهياً متقناً ، ومن أنواع الحاوى والفاكهة أشكالٌ وألوانٌ .

وضع المارد الصينية على خوان ، واختفى .

فقام علاءُ الدين إلى أمه ، ونضحَ وجهها بالماء — لأن ذلك كله حدث قبل أن تفيقَ من غشيتها ؛ ولقد ساعدت رائحةُ الطعام الشهى على إنعاشها فأفاقت .

فقال علاءُ الدين لها : لا تراعى يا أماه ! انهضى وكلى واشربى ، فأمامك ما يقوى قلبك ، ويشبع جوعى وجوعك ، وينعش جسمى وجسمك .

فعجبت الأم حين رأت صينية الفضة، وما عليها من أطباق فضية،

وحين انبعثت منها رائحةُ الأطعمة الشهية التى تتوثبُ لها الأمعاءُ ، وتتلمظُ الشفاهُ ، ويجرى الريقُ ، وقالت : لمن نحنُ مدينون بهذا الزاد الكثير ، والكرم الوفير ؟ هل علم السلطانُ بحاجتنا وجوعنا فأخذته الشفقةُ بنا ، وتعطف علينا بهذا الخير الكثير ؟ ! !

قال علاء الدين : دعينا من هذا يا أماه ، فإن ما بك من جوع لا يقل عما بى ، فلنجلس لنأكل حتى نكتفى ، وبعد ذلك أحدثك حديثاً شجياً ستطربين له وتسرين ، وسأجيبك عن أى سؤال تسألينه .

وجلسا يأكلان بشهية المحروم الجوعان ؛ وُضع أمامه ألذ الأطعمة وأشهاها ؛ وكانت أم علاء الدين تنتقل ببصرها بين الصينية والأطباق وما فيها من طعام مختلفة ألوانهُ وأنواعهُ .

أكل علاءُ الدين وأمه حتى شبعا ؛ وأفرطا فى الأكل حتى إذا جاء وقتُ الظهر لم تكن لهما شهيةٌ للطعام ، وبقى منهما ما يكفى لوجبات أخرى .

وبعد أن انتهينا ؛ حملت الأم بقية الطعام إلى المطبخ ، ثم جاءت وجلست بجوار ابنها على أريكة قديمة كانت تملكها ، وقالت له :

الآنَ قصَّ علىَّ ما حدث فى أثناء غشيتى بينك وبين هذا المارد القبيح الخلقة البشع المنظر .

فقص عليها القصةَ ، وكانت دهشتها لا تقل عن دهشتها عند ما رأت الجنى ماثلا أمامها ؛ ثم قالت : وماذا نصنع الآنَ بهذا المارد الجبار ؟ إننى لم أسمع قط طولَ حياتى من أى واحد من معارفى أنه رأى

عفريتاً من الجن ، فما السببُ فى طلوع هذا الجنى ، ومخاطبته إياى بدلا من مخاطبته إياك ؟ ! وقد ظهر لك فى الكهف من قبل .

فقال علاءُ الدين :

يا أماه ! إن الجنى الذى ظهر لك اليوم ليس هو الذى ظهر لى فى الكهف ، لأن عفريتَ الكهف أخبرنى أنه خادمُ الخاتم الذى ألبسه فى يدى هذه ، أما عفريتُ اليوم فقد سمعت أنه قال لنا : إنه خادم المصباح الذى كان بيدك ، ولعلك لم تسمعيه لأنك سقطت على الأرض مغشياً عليك حينَ ظهرَ لك .

فقالت له :

هل أفهمُ من قولك أن مصباحك كان السببَ فى أن الجنى وجهَ الكلامَ إلى ، ولم يوجهه إليك ؟ ! إذا كان الأمر كذلك فخذ هذا المصباحَ اللعينَ ، وأخفه عنى ، وضعه فى أى مكان تريد ، فإنى أخاف أن أمسه مرة أخرى فيظهر لى عفريتهُ فأموت من الفزع . . . ! !

وفى اليوم التالى فرَغ ما كان عندهم من طعام ، فلم يستدع أحد الجنيين ، ويأمره بإحضار طعام لهم إطاعةً لأمر والدته .

وأخذ طبقاً من الأطباق الفضية ، ووضعه بين طيات ثيابه ، وخرج فى الصباح الباكر إلى السوق ليبيعه ؛ فالتقى بدلال يهودى ، فأخذه جانباً وأخرج له الطبقَ ، وعرضه عليه ليشتريه ، أو ليكون واسطةً فى بيعه .

ففحصه اليهودى الماكر فحصاً دقيقاً ، فعرف حقيقته ، فسأل علاء الدين :

بكم تبيعه ؟

فقال له علاءُ الدين — وكان لم يسبق له أن باع أو اشترى مثل هذا الصنف من السلع : إنى أثقُ فى تقديرك .

فدهش اليهودى من حرص علاء الدين ، وخاف أن يكونَ يعرف قيمة بضاعته ، فأخرج من كيسه ديناراً . وأعطاه لعلاء الدين وهو يعلم أنه سدس معشار ثمنه . فأخذ علاءُ الدين الدينارَ بشغف . وانصرف مسرعاً ؛ فندم اليهودى لعدم استفادته استفادةً كاملةً من جهله ، وكان على وشك أن يجرى وراء علاء الدين ليسترد منه بعضَ ما دفع من ثمن ، لولا أن علاءَ الدين كان قد وصل إلى مكان تبين لليهودى أنه يصعبُ عليه اللحاقُ به .

وقبل أن يعودَ علاءُ الدين إلى داره مر بخباز ، فاشترى منه خبزاً وفطائرَ ، وأعطى أمه ما تبقى من الدينار لتشترى حاجات البيت الأخرى .

ولما انتهى الدينارُ أخذ علاءُ الدين طبقاً ثانياً ، وذهب به إلى السوق ، فرآه اليهودى ، وحاول أن يساومه على ثمن أقل من دينار ؛ فرفض علاءُ الدين ، وأوشك أن يبحثَ عن مشترٍ آخر ؛ ولكن اليهودى خشى أن يفلتَ من يده ، فأعطاه الدينارَ ؛ وهكذا كان علاء الدين كلما صرف ثمنَ طبق باع طبقاً آخرَ ، حتى باع الاثنى عشرَ طبقاً لليهودى نفسه .

وكان اليهودى تعاوده الرغبةُ عند كل صَفقة أن يهم بمفاوضة علاء الدين فى تخفيض ثمنها ، ولكن خوفه من كشف قيمة الأطباق . أو حرمانه منها — كان يثنيه عن عزمه !

ثم لم يلبث علاء الدين أن باع الصينيةَ التى كانت تزن عشرةَ أطباق ، ولما صرفَ ثمنها ، ومكث يوماً أو بعضَ يوم لا يجدُ ما يقتاتُ به — تذكر المصباحَ ؛ فجاء به ، وضغط على المكان الذى بدأت والدته بتنظيفه منه . فأحس كأن السقفَ ينشقُ ، وظهر الجنى ، وصاح صيحته المعهودةَ .

فقال له علاء الدين :

إنى جائعٌ ، وإن أمى جائعةٌ ،فأحضر لى ولها طعاماً شهياً لنأكله .

فاختفى الجنى ، ثم ظهر بعد دقائق حاملا صينيةً وعليها اثنا عشر طبقاً كما فعل أول مرة ، ووضعها أمامَ علاء الدين ، وانصرف .

ولما نفد الطعام أخذ علاء الدين طبقاً كما فعل أولَ مرة ، وذهب به إلى السوق ، ولحسن حظه . وسوء حظ اليهودى رآه أحدُ الصاغة الذين كانوا يشاهدونه يتردد على اليهودى من قبل ، وناداه ، وقال له :

يخيلُ إلى أنك آت لتبيع شيئاً لليهودى ، فقد رأيتكما تخلوان إلى أنفسكما مرات عدةً ؛ وإنى أخاف أن يخدعك ، فإنى أعرف فيه الخديعةَ والدهاءَ والمكر . إنى أعطيك ثمنَ ما تريد بيعه كاملا غيرَ منقوص ، وإذا كنت لا أريد أن أشترى بضاعتك أرشدتك إلى من يشترونها منك بأمانة .

فأخرج علاءُ الدين الطبق من بين طيات ثيابه ، وعرضه على الصائغ ، فما كاد يرى الطبقَ حتى عرف أنه فضةٌ خالصةٌ ، وأنه من احسن أنواع الفضة .

وسأله عما إذا كان قد باع مثله لليهودى ؛ فقال له علاء الدين :

أجل ! لقد بعتُ لليهودى اثنى عشر طبقاً مثله كل طبق بدينار .

فصاح الصائغ : يا له من نذل ! ! ولكن يا بنى — ما مضى فات ، ولا يمكن استرجاعه وسترى مقدارَ ما سلبه منك اليهودى ظلماً وخداعاً بعد أن نقدر ثمنه الحقيقى . ثم وضع الصائغُ الطبق فى ميزان دقيق الصنع ، ولما عرف مقدار وزنه قال له :

إن ثمنَ هذا الطبق ستون ديناراً ، وإنى مستعدٌ لدفعها فوْراً .

فشكر له علاءُ الدين أمانته ، واستقامته ، وصدقَ معاملته ، ولم يذهب لصائغ غيره بعد ذلك .

وعلى الرغم من أن علاءَ الدين كان يستطيعُ أن يحصل على ثروة ضخمة من خادم المصباح لو أرادَ ، فإنه لم يفعل ، وظل هو وأمه يعيشان عيشةَ الكفاف التى كانا يعيشانها من قبل ، بما كان يأخذه ثمناً للأطباق والصينية .

وفى هذه الفترة كان علاءُ الدين يختلف إلى حى الصاغة ، ويختلط بالصاغة ، ويشاهد سلعهم وبضاعتهم المختلفة ، وعرف أسماءَ الأحجار الكريمة وصفاتها وخواصها وأثمانها ، فوضح له بعد ذلك أن ما اقتطفه من فواكه رآها على أشجار الكهف الذى أحضر منه المصباح لم يكن إلا أحجاراً كريمةً ليس لها مثالٌ فى السوق ، وأنها ثروة كبيرة ، وأخذا بالأحوَط ، وحذرا من إثارة ريب الناس وشكوكهم — لم يخبر أحداً بها حتى والدته ، فقد أخفى خبرها عنها .

٥

وبينما كان علاء الدين يسير فى أحد شوارع المدينة فى يوم من الأيام سمع منادياً ينادى أصحابَ المحال التجارية . ويأمرهم أن يغلقوا متاجرهم ، وينادى السابلة أن يسارعوا إلى منازلهم ، وأن يغلقُوا الأبوابَ عليهم لأن الأميرةَ بدرَ البدور بنتَ السلطان تخرجُ اليوم إلى الحمام. فحذار أن ترى مطلاً من نافذة . أو واقفاً بباب أو ماراً فى طريق . فى أثناء ذهابها أو إيابها ، والحاضر يعلم الغائب . . . ! !

ولقد أثارَ هذا النداءُ فضولَ علاء الدين ، وبعث فيه الشوقَ إلى رؤية الأميرة بدر البدور . فذهب إلى الحمام . وتوارى خلفَ الباب ليراها عند دخولها .

وما إنْ وصَل علاءُ الدين إلى الحمام ، وأخذ مكانه وراءَ الباب من غير أن يراه أحدٌ حتى سمع جلبةً وضوضاء ، ثم لم يلبث أن رأى الأميرة تدخلُ الحمامَ ، يحف بها عددٌ كبيرٌ من الوصيفات والجوارى عن اليمين وعن الشمال ، ومن الأمام والخلف : ولما دخلت الحمام أزاحت عن وجهها النقاب ، فأتيحت لعلاء الدين الفرصة لرؤيتها من قرب .

وكانت الأميرةُ مشهورة بجمالها البارع ، فعيناها واسعتان نجلاوان ، ينبعث منهما بريقٌ أخاذٌ ، وابتسامتها ساحرةٌ ، وفمها صغيرٌ جميلٌ ، وأنفها أقنى دقيقٌ ، وشفتاها رقيقتان حمراوان ، وقوامها ممشوقٌ . فلا عجب

أن يسحر جمالها علاء الدين الذى لم يرَ مثلَ هذا الجمال الفتان من قبل .

وما إن دخلت الأميرةُ الحمامَ حتى تسلل علاءُ الدين من مكانه ، وأسرع إلى بيته . ولما رأته والدته رأته مطرقاً يبدو عليه الاضطرابَ وعدمُ الاستقرار ، ورأت على وجهه أمارات التفكير ، ورأت كأن سحابةً من الحزن والهم تطوفُ فى خياله ، سألته :

ما بالك يا بنى ؛ هل أصابك مرضٌ ؟ !

فقص على والدته قصته مع بدر البدور ، وختمها بقوله :

لقد ملكتْ على حسى وعقلى وتفكيرى ، فإذا نطقتُ فهى على لسانى ، وإذا سكت فهى فى خاطرى ، وإنى عزمت على أن أطلبَ يدها من السلطان .

فأصغت أم علاء الدين إلى ولدها مستعجبةً مشدوهةً ، وأخذت تشك فى سلامة عقله ، ولما وصل فى حديثه إلى خطبة الأميرة . ضحكت ضحكة عالية فى ثناياها سخرية منه ، وحزنٌ عليه ، وشفقة به ، وقالت :

واأسفاه يا بنى ! ! ما الذى أصابكَ ؟ ! هل أنت محموم ؟ ! إنك تهذى وتهرف بما لا تعرف ، إنك لا تقدرُ عواقب ما تقول . هل جُننتَ يا بنى ؟ ! !

فقال لها علاءُ الدين :

أو كذلك يا أمى ؟ إننى لست مجنوناً ، ولكنى مالك لكامل قواى العقلية ، ولقد كنتُ أتوقع أن ترمينى بالحماقة والإسراف فى القول ؛ ولكنى أكرر لك أننى عازمٌ على طلب يد الأميرة من السلطان ، وسوف لا أنى

فى السعى لتحقيق ذلك من غير أن يتطرقَ اليأسُ إلى نفسى ؛ إن لدىّ خدمَ الخاتم والمصباح وأنت تعلمين قوتهم واقتدارهم ، وإن لدى سراً أريد أن أخبرك به :

إن قطعَ الزجاج التى حملتها معى من شجر الكهف المسحور ليست بقطع من الزجاج وليست أنواعاً من الزهر ، وصنوفاً من الثمر كما كنا نتصورُ ؛ إنها أحجارٌ كريمةٌ غالية الثمن ، وتصلح لأعظم ملوك العالم ، وإن جميعَ الأحجار الكريمة الموجودة فى قصر بغداد ، وفى محال بيع الجواهر — لا تقاسُ بما عندى من جواهر فى الحجم والجمال والنقاء ؛ وإنى واثقٌ من أن تقديمَ بعضها هدية للملك سينيلنا عطفَ الملك ورضاه ؛ وإن لديك صينية كبيرة تصلح لوضعها فيها . فأحضريها ، ولنصف الأحجارَ الكريمةَ صفاً فنياً لا تتنافرُ معه ألوانها البراقة المختلفة !

ولكن لمعانَ الجواهر وبريقها الأخاذ ، وتعدد ألوانها ، واختلاف أشكالها — بهر الأم وابنها ؛ فأصابهما الذهولُ ، وأخذتهما الدهشةُ .

أفاقت الأم، وملكت حواسها ،وعاد إليها عقلها ، وهدأت أعصابها وفكرت فيما رأت ، فعرفته ثروةً طائلة ؛ فاطمأن قلبها ، وتشجعت ، ووعدت ابنها أن تحمل الصينية بما عليها إلى السلطان .

استيقظ علاءُ الدين فى اليوم التالى قبل طلوع الفجر ، وأيقظَ والدته ، وحثها على الذهاب إلى قصر السلطان ، فأجابت الأمُ ابنها إلى رغبته ، ولفت الصينيةَ بما عليها من الجواهر فى فوطة من حرير دقيق الصنع ، وحملتها ، وسارت إلى قصر السلطان .

وعلى الرغم من كثرة أصحاب الحاجات والظلامات المتجمعين أمام القصر تمكنت من الدخول، وسار بها الحجابُ إلى بهو متسع لم تر مثله عينها من قبل فى الفخامة والجمال ، وجودة النقش وحسن التنسيق ، وأدخلت على السلطان — وهو فى مجلسه — فوقفت عن يمينه وهو ينظرُ فى قضايا الناس وظلاماتهم .

ونودى على أناس كثيرين بترتيب قضاياهم ؛ وحققت قضاياهم ، وفصل فيها . ولما انتهت الجلسةُ ، انصرف الناسُ ، وغادر الملكُ البهو يرافقه الوزيرُ ويحف به الحراسُ .

فعادت الأم أدراجها ، فألفت ابنها ينتظرها وقد أوشك صبره أن ينفدَ ؛ فخف إليها فى شغف ولهفة ، وسألها عما حدث ؛ فقالت له :

لقد ذهبت يا بنى إلى قصر السلطان ، ورأيتهُ فى مجلس قضائه ، وإنى أعتقد اعتقاداً جازماً أنه رآنى كما رأيته لأننى كنتُ واقفةً على مقربة منه : ولقد أشفقتُ على السلطان من كثرة أعماله ، وعجبتُ من جميل صبره : ورأيتهُ مجهوداً مكدوداً فى آخر الجلسة ، وقد كان التعبُ بادياً عليه حين نهض فجأةً وغادر البهوَ من غير أن يفطن إلى ! ولقد هممت أن أكلمه ولكنه أسرعَ فى الذهاب ؛ ولقد كنت متعبةً جداً من طول مكثى : ولذلك لم أفكر فى استيقافه أو اعتراض طريقه ، فما كاد ينفض مجلسُ قضائه حتى عدت إليك ومع ذلك فلم يحدث ضررٌ : فإنى سأذهب إليه غداً ؛ فعسى أن يكونَ فى غد أقل انشغالا بقضاء حاجات الناس منه فى هذا اليوم .

وفى صباح اليوم التالى ذهبت الأم إلى قصر السلطان حاملةً الهدية ، ولكنها لم تكن فى هذه المرة أحسنَ حظاً منها فى اليوم السابق .

وأعادت الكرة ست مرات ، وفى كل مرة كانت تجتهد أن تقفَ بحيث يراها السلطانُ ، لعله يحدثها ، أو يسألُ عنها ، ولكنه لم يفعل.

وفى اليوم السادس حينما عادَ السلطانُ إلى مقصورته بعد فصله فى قضايا الناس ، قال لوزيره الأكبر :

لقد رأيت امرأةً تواظب على المجىء إلى مجلس القضاء ، وتقف على مقربة منى ، وهى تحمل شيئاً ملفوفاً ، ولاتبرحُ المكانَ حتى ينتهى المجلسُ ؛ فإذا انتهى عادت أدراجها من غير أن تعرضَ قضيةً ، أو تنشر ظلامةً ، فما شأنها ؟ !

فأجاب الوزير بأنه لا يعرف من أمرها شيئاً .

فقال السلطانُ : إذا جاءت هذه المرأةُ مرةً أخرى فادعها حتى أستمعَ إلى ما عساها أن تقوله !

وفى اليوم التالى ذهبت أم علاء الدين إلى مجلس قضاء السلطان ، ووقفت فى المكان الذى تعودت أن يقفَ فيه فى الأيام السابقة ؛ فلما رآها الوزيرُ الأكبرُ استدعى أحدَ الحجاب وأشار إليها ، وأمره أن يحضرها . فسارت أم علاء الدين خلفَ الحاجب حتى وقفَ بها أمامَ السلطان . فلما كانت أمامه سجدت . وظلت كذلك حتى أمرها الملكُ أنْ ترفعَ رأسها . ففعلت ، فقال لها الملكُ :

أيتها المرأةُ الطيبةُ ! لقد لحظتُ أنك كنت تأتين كل يوم ، وتظلين

واقفة من مبدأ الجلسة حتّى نهايتها ، من غير أن تعرضي قضيةً ، أو تنشري ظلامةً ؛ فما الذى دعاك إلى ذلك ؟ !

فلما سمعت كلامَ الملك سجدت مرةً أخرى ، ولما نهضت قالت مخاطبةً الملك : يا ملك الملوك ! ألتمس منكَ أن تغفرَ إن أخطأتُ أو أسأتُ إلى مقامك الكريم فيما سأقوله .

فقال لها السلطانُ : قولى ما يبدو لك ولا جناحَ عليك ولا تثريب ؛ فتكلمى بلا خوف ولا وَجل ، فأنت آمنةٌ .

ولما أمنت أم علاء الدين على نفسها من غضب الملك — قصتْ عليه سببَ مجيئها إليه ، ومثولها بين يديه .

فأصغى السلطانُ إلى رسالة المرأة من غير أن تبدوَ عليه أمارات الغضب ، ولكنه قبل أن يجيبها إلى ما طلبت سألها عما تحمله ملففاً فى الفوطة ؛ فكشفت الصينيةَ ، ووضعتها على نضد أمامَ الملك !

فما إن رأى الملكُ ما عليها من جواهر نادرة جميلة حتّى فغرَ فاه من الدهشة ، وظل بضعَ ثوان لا يحير كلاماً ، وعقدت الدهشةُ لسانه ! ولما زالت عنه الدهشة وعاد إلى اتزان الملوك أخذ الصينيةَ ، وظل يقلبُ جواهرها ويكرر قوله : ما أجملَ هذه الجوهرةَ !! وما أكبرَ هذه الزمردة!! وما أبدع هذه الدرةَ ! !

وبعد أن فحص عن الجواهر ، وتناولها واحدةً بعد أخرى ، التفت إلى الوزير الأكبر وأراه الصينيةَ ، وقال له : انظرْ واعجبْ وادهش واعترفْ أن عينيك لم تر قط جواهرَ أجمل مما ترى !

فأعجب الوزيرُ بما رأى . فقال السلطانُ للوزير :

حسناً ! ! ما رأيك فى الهدية ؟ أليست تسمو إلى مقام الأميرة ؟ ! أليس من الواجب أن نوافق على زواج الأميرة ممن يقدرُها قدرَها ؟

فقال الوزير : إنى أعترفُ أن الهديةَ على قدر الأميرة ، ولكنى أرجو أن يتريثَ السلطانُ ، ويمهلنى ثلاثة أشهر ، فقد تتاحُ الفرصةُ لابنى أن يقدم هدية خيراً من هدية علاء الدين الذى هو شخصٌ أجنبى عن عظمتك .

فوافق السلطان على اقتراح الوزير الأكبر ، ثم التفت إلى أم علاء الدين وقال لها : ارجعى إلى دارك أيتها المرأةُ الطيبةُ ، وأخبرى ابنك أنى رضيت به زوجاً لابنتى ، ولكن ذلك الزواجَ لا يتم إلا بعد ثلاثة أشهر ؛ فإذا ما انقضت المدةُ فتعالى إلينا .

فرجعت أم علاء الدين إلى بيتها وهى فرحةٌ مسرورةٌ مغتبطة بنجاح وفادتها نجاحاً لم تكن تتوقعه ، وأخبرت ابنها النطق السلطانى الكريم .

ولما سمع علاءُ الدين رسالة السلطان كاد يجن من الفرح ، وخيل إليه أنه أسعدُ الناس جميعاً ؛ وأخذ يعد الأيامَ والساعات التى تمر .

وصادف أن خرجت أم علاء الدين بعد شهرين من مقابلتها السلطان لفراغ ما عندها من زيت ، فوجدت حركةً غير عادية ، وزينات تعلقُ ، وأفراحاً تقام ، ووجدت الشوارعَ مكتظةً بالناس والجنود والضباط بملابسهم الرسمية ممتطين خيولهم ومن ورائهم الخدمُ والأتباعُ ، فسألت أم علاء الدين الزياتَ : ما الخبرُ ؟ !

فقال لها الزياتُ : هل أنت غريبةٌ عن هذهِ الديار أيتها السيدة الطيبةُ ؟! فكيف، لا تعلمين الخبرَ الذى شاع وذاعَ ، وملأ البقاعَ ؟! إن هذه الأفراحَ التى تقام إنما هى من أجل زواج ابن الوزير الأكبر من الأميرة بدر البدور ابنة السلطان فى هذه الليلة ، وقد ذهبت الأميرةُ إلى الحمام وستعود منه بعد قليل ؛ وإن هؤلاء الجنودَ والضباطَ مصطفون فى الشوارع ترحيباً واحتفاءً بمرورها .

ولما سمعت أم علاء الدين هذا الخبرَ طارت إلى البيت ، وعند ما رأت ابنها صاحت محزونةً :

يا بنى ! لقد أضاعوك ، وغدروا بك ، وإن وعودَ السلطان وعودٌ كاذبةٌ ؛ فإنه فى هذه الليلة سيتزوجُ ابنُ الوزير الأكبر ببدر البدور بنت السلطان .

ولما سمع علاءُ الدين الخبرَ الفاجعَ اعتراه ضيقٌ شديدٌ ، وألم ممضٌ ، وأسرع إلى مصباحه ، وصمم أن يدعوَ خادمه العفريتَ الذى وعده أن ينقلَ له الجبالَ وينزح البحارَ ، ويحيل المدنَ خراباً ، والخراب عمراناً ؛ وكان همه الأول منعَ هذا الزواج بأى وسيلة من الوسائل مهما كلفه ذلك من جهد ومشقة .

حك علاءُ الدين المصباحَ ، فجاءه الجنى ملبياً ، وقال له الكلامَ الذى اعتاد أن يقوله .

فقال له علاء الدين :

أصغَ إلى . لقد نفذتَ من قبل كل ما أمرتك به ، وآمرك الآن أن

تقومَ بعمل صعب شاق . إن بنتَ السلطان التى وعدنى أبوها بالزواج منها . ستتزوجُ الليلةَ ابنَ الوزير الأكبر . ترقب ذلك ، واحضر حفلات الزواج كلها . واتركهم يحتفلون ما يشاءون أن يحتفلوا ؛ فإذا انتهت الاحتفالاتُ ، وعاد الناسُ إلى بيوتهم ، وأوت بدر البدور وابن الوزير زوجها إلى منزل الزوجية المعد لهما ، فلا تدعهما يخلوان إلى أنفسهما ؛ ولكن أسرع إليهما ، وأحضرهما إلى . وأنا فى انتظارك .

فقال الجنى : سيدى ؛ إنك تطلبُ أمراً لا عسرَ فيه ولا مشقة .

انصرف الجنى . وتناول علاءُ الدين العشاء مع أمه كعادتهما كل ليلة . ثم ذهب إلى مقصورته فى انتظار حضور الجنى بالأميرة .

وبينما كان علاءُ الدين منتظراً فى هم ناصب ، وقلق ممض ، كان قصر السلطان يموجُ بكبار رجال الدولة الذين دعوا لحضور الاحتفال بزواج الأميرة : فالزينات مقامةٌ ، والمغنون يغنونَ . والمشعوذون يشعوذون ، والمضحكون يفاكهون الناسَ ، والنساءُ يزغردنَ ، والأطفال يلهون . وهكذا ترى فى كل مكان سامراً ؛ والموائدُ بعد ذلك ممدودة يختلفُ إليها الناسُ من هنا وهناك . فيشبعون بطونهم . ويدعون للعروسين بالرفاء والبنين .

انتهى الحفلُ ، وانفض الناسُ ، وأوى العروسان إلى منزلهما الذى أعد لهما . ولم يكد يستقر بهما المقامُ . ويأمران الخدمَ ووصيفات القصر بالانصراف حتى ظهر لهما خادمُ المصباح الأمين . كأنما نبت من الأرض ، أو هبط من السماء فهلعت العروسُ . وذعرت . وظنت أن زوجها سيخف إلى حمايتها . ولكنه كان أشد منها خوفاً وأكثر رُعباً .

ولم تشعر إلا وهما طائران فى الهواء . وانتهت رحلتهما الغريبةُ بين غمضة عين وانتباهتها أمام علاء الدين .

ولما رآهما علاءُ الدين سر سروراً عظيماً ، وقال للجنى :

خذْ هذا المتطفل ، واحتفظ به فى مكان أمين ، وائتنى به فى صباح الغد .

ولما خلا علاءُ الدين بالأميرة تقدم إليها فى عطف ولطف واحترام . وحاول أن يهدئ من روعها ، ويؤمنها على نفسها ؛ ثم أخذ يقصُ عليها قصته مع أبيها ، وغدره به فهدأت بعضَ الهدوء . وزال عنها بعضُ ما بها من الفزع والرعب ؛ وكان الليل قد أوشك أن ينتهى فأمر علاءُ الدين أن يهيأ لها مكانٌ لتنامَ فيه . ثم أغلق بابَ الغرفة عليها . ونامَ مع أمه إلى الصباح .

ولما طلع الفجرُ جاء الجنى بالزوج ابن الوزير الأكبر ، فأمره علاءُ الدين أن يحملهما إلى قصرهما الذى هيئ لهما ليعيشا فيه .

وما إن استقر بهما المقامُ فى مقصورتهما حتى جاءَ السلطان ليقدمَ تهانيه الأبوية للأميرة ، ويباركها هى وزوجها .

ولما دخل على الأميرة ، تقدم إليها وقبلها فى جبينها قبلة العطف والحنان ، لكنه عجب من أن الأميرة لم تكن مبتهجة ، بل كانت متجهمةً عابسةً ؛ ثم ألقت إليه نظرةً حزينةً ألقت فى نفسه أن بنته قد أصابها مكروه .

وخشى الملكُ أن يكونَ فى الأمر سر خفى ، فأسرع إلى مقصورة

زوجته ، وحدثها حديثه مع الأميرة ، وصور لها كيف وجدها ، وكيف لقيته ، وكيف ألقت إليه نظرةً حزينة هزته هزاً عنيفاً ، لأنه تأكد أن في الأمر سراً خطيراً لا يعرفه .

فانزعجت الأم ، وقالت لزوجها : إني ذاهبةٌ إلى الأميرة لأعرفَ خبرها.

وما إن التقت الأميرةُ بأمها حتى ارتمتْ في أحضانها ، وأنَّتْ وبكتْ ، وتنهدتْ وشكت . وسألتها أمها :

ما بالك يا بنتي حزينة في صبيحة ليلة زفافك ؟ !

فقصت عليها القصة ، وكيف قضتْ ليلتها ؛ فعجبت الأم ، وطلبت منها ألا تخبر أحداً بهذه القصة التي لا يصدقها عقل ، وتكون مثارَ قيل وقال ، ومصدر شائعات قد تضر بسمعتها وسمعة أبيها وسمعة زوجها.

أما الزوجُ فقد عز عليه أن يقص قصة إهانته وهو ابنُ وزير وزوج بنت السلطان ، فرأى من حزم الأمور أن يلتزمَ الصمت ، ومبالغة في التستر أمر أن تستمر الأفراحُ ، والليالي الملاح سبعة أيام .

وما كاد الزوجان غير السعيدين يخلوان إلى أنفسهما في الليلة التالية حتى جاءهما الجني خادمُ علاء الدين ، وحملهما إلى منزل علاء الدين ، وقضيا ليلتهما كما قضياها في الليلة السابقة : الجني يتحفظُ على ابن الوزير حتى الصباح ، وعلاء الدين يدخلُ بدر البدور غرفةً خاصةً لتنام فيها ، حتى إذا أصبحَ الصباحُ أعيدا إلى مقصورتهما .

وجاء السلطانُ ليرى الأميرةَ ، ولم تطق الأميرةُ كتمان الأمر ، فقصت عليه كل ما جرى لهما في الليلتين السابقتين .

ولما سمع السلطانُ هذه الأخبارَ المزعجةَ العجيبةَ ، استدعى الوزير الأكبرَ وخلا إليه ، وقص عليه قصةَ ابنته ، فقال له الوزير :

إن ما لقيتهُ الأميرةُ لم يكن شيئاً مما لقيه ابنى ، فإن الأميرةَ عوملت بكل تجلة واحترام ،أما ابنى فقد عذبَ وأهينَ واحتقرَ .

فتقرر قرارُ الملك على أن يفرقَ بين الأميرة وابن الوزير زوجها ، وإلغاء الاحتمالات .

وقد أدى هذا الإلغاءُ إلى عجب الناس ودهشتهم وتساؤلهم ، وأطلق الشائعات بينهم ؛ ولم يكنْ يعرف السر إلا علاء الدين الذى أخفاه حتى عن والدته .

٦

وفى اليوم التالى لانتهاء الثلاثة الأشهر التى كان الملكُ قد حددها لأم علاء الدين ذهبت الأم إلى القصر ، ووقفت فى المكان الذى كانت تقفُ فيه على مقربة من الملك فى مجلس قضائه ، فعرفها الملكُ ، وأمر الوزير أنْ يستدعيها إليه .

ولما مثلت أم علاء الدين أمامَ الملك سجدت أمامه على عادة أهل زمانها حينما كانوا يقابلونَ الملوكَ ، ثم نهضت وقالت له :

أيها الملكُ السعيدُ ! لقد جئتُ إليكَ لأستنجزَك وعدك الذى قطعته على نفسك بزواج الأميرة بدر البدور من ابنى علاء الدين .

قال الملكُ إلى الوزير ، وسأله أن يُشيرَ عليه بما يفعلُ . فهمس إليه الوزيرُ قائلاً : إن خيرَ ما تفعلُ أن تطلبَ منها شيئاً يعجزُ عنه أقوى الناس وأعزهم وأغناهم فتنصرف ولا تعودُ إليك .

فاستحسن الملكُ رأيَ الوزير . والتفت إلى أم علاء الدين ، وقال لها :

أيتها المرأةُ الطيبةُ ، إن من الحق علينا أن نفي بوعدنا . وأن نكونَ عندَ كلمتنا . وإني سأحافظُ على وعدى لك بزواج بنتي الأميرة بدر البدور من ابنك ؛ ولكن لن يتم ذلك إلا بعدَ أن أتأكد من قدرة ابنك على أن يرتفع إلى مستواها . فارجعى إليه ، وأخبريه . أنى لا أزوجه منها إلا إذا استطاع أن يهبَ لها أربعين صينيةً من الذهب الخالص . وعلى كل منها مقدارٌ من الجواهر والأحجار الكريمة يعدل ما كان على الصينية التي قدمت لنا أولَ مرة ، على أن يحملَ كل صينية مملوكٌ حبشي . ويحف بالمماليك الأربعين أربعون من الغلمان البيض . وكلهم بملابسَ فاخرة . هذه هي شروطي ، وهذا هو مهرُ بنتي . فإذا استطاع ابنك ذلك رضيتُ به زوجاً لابنتي . وإني في انتظار رد ابنك .

فخرت أم علاء الدين ساجدةً أمام السلطان مرةً أخرى ، ثم انصرفت ، وفي الطريق عجبت من هذيان ابنها ، وتعلقه الأحمق بابنة السلطان . فمن أين له هذا العدد الكبير من صينيات الذهب المملوءة بالدر والجواهر ؟! إن ذلك لا يقدرُ عليه بشرٌ .

ولما وصلت إلى البيت تساورها هذه الوساوسُ والأفكارُ . قصت

على علاء الدين ما جرى بينها وبينَ السلطان ، وأخبرته ما طلبه مهراً ممن يريدُ الزواجَ من الأميرة ؛ وختمت حديثها مع ابنها بقولها :

وإن السلطان فى انتظار ردك الآنَ ، وأغلب ظنى أنه سوف ينتظرُ طويلاً ! !

فقال لها علاءُ الدين :

سوف لا يطولُ به الانتظارُ كما تظنين يا أماه . إن طلبه هينٌ على ؛ وإنى سأبرهن له أن لا عقبةَ تحولُ بينى وبين الزواج من الأميرة . سترين أنى أعد ما طلبه فى أقل من لمح البصر .

ودخل علاءُ الدين مقصورته ، ودعا خادمَ المصباح . وأمره أن يأتى بما طلبه السلطان ليقدمه له قبل انفضاض مجلس الصباح .

فقال الجنى : سمعاً وطاعةً . ثم اختفى .

ولم يلبث أن ظهرَ ومن ورائه أربعون عبداً حبشياً يحملون أربعين صينيةً من الذهب الخالص . وعليها ما طلبه السلطانُ من جواهرَ كبيرة الحجم ، نادرة المثال ويحيط بهم أربعون مملوكاً ؛ واصطفوا جميعاً أمامَ بيت علاء الدين ، ونادى علاءُ الدين أمه . وقال لها :

لا تضيعى الوقتَ يا أماه . فهذه هى الهديةُ التى طلبها السلطانُ ، تقدمى المماليك إلى قصر السلطان ، وقدمى له هذه الهدية الثمينة ، حتى يعلم حوْلى وطوْلى وقوتى وقدرتى ، وعزى وغناى .

وما إن سار هذا الركبُ فى موكب عظيم ، حتى استرعى نظرَ الناس ، وأخذوا يتساءلون عن نبئه ؛ وإن نظامَ المماليك البديع ،

ومشيتهم الرزينة ، وملابسهم المزركشة ورشاقة أجسامهم . . استحوذت على عقول الناس ، وأثارت إعجابهم ، وتجمعوا ليشاهدوهم ؛ لأن الناسَ لم يروا قط مثل هذا المشهد البديع ، حتى فى قصر السلطان نفسه !

ولما بلغ السلطانَ خبرُ مقدمهم أصدر أوامره لحراس القصر بالإذن لهم بالدخول ، ووصلوا إلى المجلس من غير أن يعترضَ أحدٌ سبيلهم . ولما اقتربوا من المجلس انقسموا قسمين : قسم وقف عن يمين الملك ، وقسم وقف عن شماله ، ثم تقدم العبيدُ الذين يحملون الجواهر ، ووضعوا ما يحملون! أمامَ الملك وسجدوا جميعاً أمامه . وحذا حذوهم المماليكُ البيضُ . ولما نهض المماليكُ جميعاً كشف العبيدُ السود عن الجواهر ، ثم وقفوا بأدب واحترام وأيديهم مشبكة على صدورهم .

ثم تقدمت أم علاء الدين ، وحيت السلطان ، ثم قالت :

إن ابنى يقرئُ السلطانَ السلام ، ويبلغه أن هذه الهديةَ دون قدر الأميرة بدر البدور ، ولكنه مع ذلك يرجو مولاىَ السلطان أن يتفضلَ بقبولها ، وعسى أن تحوزَ قبولَ الأميرة ورضاك لأنه طلبة ولدى !

أما الملكُ فإنه انعقدَ لسانهُ من فرْط دهشته دقائق معدودة ، ظل صامتاً فى أثنائها ، ثم انطلقَ لسانهُ فقال :

أيتها المرأة الطيبةُ ؛ انطلقى إلى ابنك علاء الدين . وأخبريه أنى أنتظرُه بذراعين مفتوحتين ، وكلما أسرع لمقابلتى لأزوجه من الأميرة ابنتى زاد ذلك فى سرورى . وضاعف سعادتى .

وما إن خرجت أم علاء الدين من القصر حتى أسرع الملكُ إلى



الأميرة بدر البدور تشاهد هدية علاء الدين

فض الجلسة ، وصرف الناسَ . ونهض عن كرسيه ثم نادى وصائفَ الأميرة ، فلبوا النداءَ مسرعين ؛ فأمرهم أن يقودوا ذلك الموكبَ العظيمَ بما يحمل من الجواهر الغالية ، ويذهبوا بها إلى مقصورة الأميرة ؛ وسبقهم إليها ليعاودَ فحصَ الجواهر على مرأى من الأميرة . وفى خلوة من الناس .

فتقدم الوصيفاتُ المماليكَ والغلمان الذين جاءوا بالهدية إلى مخدع الأميرة، وكان السلطانُ قد سبقهم إلى الأميرة، وقص عليها ما حدثَ ، ووصف الجواهرَ وأوانيها وحامليها ، وبالغ فى الوصف . وجاء الغلمانُ ، واصطفوا أمام المقصورة . فطلب الملكُ من بنته أن تطل عليهم من وراء ستار ، لترى بعينيها ما سمعته أذناها حتى لا تتهمه بالمبالغة .

وفى أثناء ابتهاج الملك والأميرة بالهدية والتفرج عليها — كانت أم علاء الدين تسرعُ إلى البيت ، وما إن رآها علاءُ الدين حتى فهم من ملامح وجهها ، ومن السرور البادى عليها أنها عادت من عند السلطان راضية ، فاغتبط وانشرح صدرُه ، وتنهد تنهدةً فيها اطمئنانٌ لنفسه . وبردٌ لقلبه . وما لبثت الأم أن صدقته الخبر . فقالت له :

لقد بلغتَ يا بنى أوجَ السعادة ؛ فقد وافق الملكُ على زواجك من الأميرة ، وأعلن ذلك على رءوس الأشهاد . وهو مغتبطٌ لذلك أشد الاغتباط ، وهو يدعوك إلى المبادرة إليه . لأنه فى انتظارك فى لهفة .

وما إن سمع علاءُ الدين كلامَ أمه حتى أسرع إلى غرفته . وهناك دعا الخادمَ المطيعَ، وقال له : احملنى الآن إلى أحسن حمام . وائتنى

بأفخر الثياب ، وبأجمل حلة لبسها سلطانٌ أو ملكٌ !

ولم يكد علاء الدين يتم كلماته حتى حمله الجنى ، واخترق به حيطانَ الغرفة وأوصله إلى حمام فخم ، أرضه من الفسيفساء ، وحيطانه من الرخام ، وأحواضه من المرمر ، وقطائله من الحرير ، وستائره من الخز والديباج ، وأثاثه من القرو والعاج والأبنوس ، وتفوح منه روائح الند والكافور والعنبر ، وروائح أخرى لم تعطر من قبل معاطسه .

واستقبلته فتياتٌ كأنهن الحورُ العين . وغلمان كأنهم اللؤلؤُ المكنون؛ وخلعوا عنه ملابسه ، ثم نقلوه من حوض إلى حوض ، وكل حوض تختلف رائحةُ مائه . ودرجةُ حرارته عن الأحواض الأخرى ؛ وأخذت الفتياتُ بعد ذلك يدلكنه ، وينظفن جسمه بوسائلَ وطرق لم يألفها أهل الأرض ، ولم يشعر فى كل هذا بألم أو نصب ، بل كان فى نشوة ، وشعور براحة ، ولذة لم يذقها من قبل .

وبعد أن جففن جسمه من الماء بقطائلَ لينة الملمس ، ألبسنه أفخر الشعار ، وأسبلن عليه حلةً يأخذ بريقها بالأبصار مما حليت به من در وأحجار كريمة ، ووشيت به من فضة وذهب .

وحمله الجنى بعد ذلك كله إلى غرفته ، وقال له : هل تطلبُ شيئاً آخر؟

فقال له علاءُ الدين :

أريد أن تحضرَ لى فرساً فارهاً يكون أجملَ مما عند الملك من جياد أصيلة ، وعليه سرجٌ ، وفى فمه لجام ، لم ير البشرُ مثلهما ، ولم يخطر جمالهما على قلبهم ، ثم ائتنى بعشرين مملوكا بثياب فاخرة ، وسيوف

بقلائد من حرير وذهب ، ليسيروا عن يمين وشمال ، وعشرين آخرين يسيرون فى صفين متوازيين أمامى ليفسحوا لى الطريقَ ، ثم أحضرْ مركبةً تجرها جيادٌ مطهمةٌ لتركب فيها أمى بعد أن تأتى لها بحلة فاخرة . وعربات أخر ، ليركبَ فيها عشرُ جوار حسان لابسات أحسن الثياب ليسرن فى صحبتها وصيفات لها ، وكل جارية تحمل حلةً فاخرةً تليقُ بالأميرة بدر البدور ثم أحضر لى عشرة أكياس من ذهب ، وبكل كيس ألفُ دينار . اذهب وائتنى بكل ما طلبتُ وأسرع .

وما انتهى علاءُ الدين من كلامه حتى اختفى الجنى ، ثم ظهر ووراءه الغلمانُ والجوارى والعرباتُ والحلل ، وأكياس الذهب .

وقدم علاءُ الدين الجوارى والحللَ لأمه ، وقال لها :

هذه الجوارى وهذه الحللُ لك ، ثم أعطاها أربعةَ أكياس من الأكياس العشرة ، وقال لها :

وهذه الأكياسُ الأربعةُ لك أيضاً تتصرفين فيها كما تشائين !

أما الأكياسُ الستةُ فإنه أعطاها لغلمانه ليحملوها ، وأمرهم أن ينثروها على رءوس النظارة فى الطريق التى يمر بها إلى قصر الملك ، وأمرهم أن يتقدموه فى صفين : ثلاثة عن اليمين وثلاثة عن الشمال .

ولما فرغ علاءُ الدين من إعداد ركبه إلى القصر صرف الجنى ، ثم ركب فرسه ، وركبت أمه المركبة .

وسار الركبُ الفخمُ الذى لم تر المدينةُ مثله ، فأذهل الناس الذين خفوا إلى مشاهدته ، فنثرت عليهم دنانيرُ الذهب كما أمر علاءُ الدين ،



السلطان يستقبل علاء الدين

فاغتبط الناسُ وفرحوا ، ودعوا لعلاء الدين بطول العمر ، وهتفوا له بالحياة السعيدة .

وكان علاءُ الدين لم يركب فرساً قط ، إلا أنه كان يمتطى جواده كأحسن فارس مدرب على ركوب الخيل .

ولما وصل علاء الدين إلى القصر ، ورآه السلطان ، أعجب أيما إعجاب بفخامة موكبه وجمال ملابسه . وملابس أمه وأتباعه وتابعاتها ؛ لأنه وهو سلطانٌ . وحاكم البلاد وأغنى منْ فيها — لم يكن له مثلُ ما رأى معهم وعليهم . وقد أثر عليه جمالُ منظرهم . وجلالُ مظهرهم . كما تأثر من مرْأى علاء الدين ورزانته ومهابته .

فنهض الملكُ ، وأسرع إليه . وعانقه . ولما هم علاءُ الدين أن يسجدَ له على عادة الناس فى مقابلة سلاطين هذا الزمان ؛ لم يمكنه من ذلك . وأمسك بيده ، وأجلسه عن يمينه . وبعد ذلك أولم له وليمةً فاخرةً لا تولمُ إلا للملوك والأمراء ، دعا إليها الوزراءَ وكبارَ رجال الدولة . وكان مجلسُ الشرف لعلاء الدين . وجلس كل فى مرتبته .

وبعد الوليمة استدعى الملكُ القاضيَ . وأمره أن يعقد عقد قران بدر البدور وعلاء الدين .

وبعد أن تم ذلك سأل السلطانُ علاءَ الدين عما إذا كان يريدُ البقاءَ فى القصر لإتمام حفلات الزواج فى المساء نفسه الذى تم فيه الزواجُ ، واستقبال المهنئين .

فقال علاءُ الدين :

أيها السلطان الجليل : على الرّغم من شوقى العظيم للقاء زوجتى الأميرة فإننى ألتمس من عظمتك أن تهبنى قطعةً من الأرض بجوار قصركم المنيف ، لأشيد فيها قصراً يليق بمقام الأميرة فى أقرب مدة .

وأجابه الملكُ إلى طلبه ، ثم عانقه مرةً أخرى قبلَ انصرافه . وأظهر من الأدب ومعرفة السلوك نحوَ الملك ما أدهشَ الملكَ . إذ أنه بدا كأنه وُلدَ فى القصر وعاش فيه.

ورجع علاءُ الدين على النسق الذى جاء به . وما إن احتوته غرفته حتى استدعى الجنى ، وقال له :

أريد منك أن تبنى لى قصراً بجوار قصر السلطان ، وأنْ يكونَ أفخم من قصر السلطان وأكثرَ منه اتساعاً . وأعلى بنياناً ، وفيه من الحلِى والنقوش من الذهب والفضة والرسوم الملونة ما لم يحوه قصرٌ من قصور الملوك والسلاطين . وفيه من الأبهاء والردهات والمقصورات ما لم يخطرْ على قلب إنسان . وألا تكونَ نوافذه -- إلا واحدة -- من الفضة الخالصة والذهب الوهاج . ثم انقل إليه من الأثاث المصنوع من الذهب والفضة والعاج والأبنوس ما يزدحمُ به ، واجعل حلياته دراً وياقوتاً وزمرداً . واحمل إليه الفراشَ المنجدَ من الحرير وريش النعام ، المزخرف بأحسن الزخارف ؛ وأحطه بحدائقَ فيها من كل فاكهة زوجان . وفيها النافورات العجيبةُ ، وفوقَ ذلكَ يكونُ له خزانةٌ كبيرةٌ ، تملأ بالنفائس والجواهر ، والذهب ، والعملة المستعملة فى سلطنة صهره من كل الأنواع ، ويحوى اصطبلات منظمة للخيول والعربات . وعلى جانب منه الثكناتُ للجنود والحراس

والضباط ، وبيوت للمماليك والغلمان والجوارى ، ومطابخ مجهزة بكل ما تحتاجُ إليه من أفران ومواقد و .... اذهبْ وأسرع ونفذ ما طلبته منك .

وما انتهى علاءُ الدين من أوامره حتى غربت الشمسُ . ولما طلعت الشمسُ جاء الجنى إلى علاء الدين ، وقال له :

قم لتنظر ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب إنسان ؛ وحمله إلى القصر .

وعلى الرغم من أن علاءَ الدين كان ينتظرُ ما هو راء الآن ، ولكنه كاد يعزب عنه عقله من عجب ما يرى وفخامة ما يشاهدُ . وجمال ما يتطلعُ إليه . وقاده الجنى إلى أجزاء القصر فألفى الجنودَ والضباط والحراسَ والمماليك والغلمانَ والجوارىَ والخيولَ المطهمةَ كل فى المكان الذى أعد له ؛ ثم قاده إلى الاصطبلات فوجد الخيول الأصيلةَ والسياس يعنون بها تمشيطاً وتنظيفاً .

ثم إلى المخازن فوجدَ فيها كل ما لذ وطابَ من أصناف الطعام والشراب والفواكه فى أوان خاصة تحفظه من التلف .

وكانت الخزينةُ خاتمةَ المطاف ، وحين طرق الجنى بابها فتحه جنى . وأخذ يطوفُ بهم على أقسامها : هذا قسمُ الذهب ، وهذا قسم الفضة ، وهذا قسم العملات الصغيرة ، وهذا قسم الزمرد ، وهذا قسم الياقوت ، وهذا قسم الخز والديباج والحرير ، وهذا قسمُ الأثاث ، وهذا قسمُ الرياش . وهذا قسمُ الملابس الجاهزة من كل الأصناف والحجوم ، وهذا قسمُ الأوانى الذهبية والفضية ، وهذا قسم الكئوس . . .

ولما رأى علاءُ الدين أجزاءَ القصر وما فيه وبخاصة البهو العظيم ذا الأربع والعشرين نافذةً ، ووجدها أكثر مما كان ينتظرُ قال للجنى :

لم يبقَ إلا شيءٌ واحدٌ وهو بساط يفرشُ للأميرة من قصر أبيها إلى هذا القصر .

وما إن قالها علاءُ الدين حتى نفذت ثم حمله الجنى إلى بيته .

ولما شاهد بعضُ خدم قصر الملك القصرَ المنيفَ الذى ظهر كأنما ألقى إلى المكان إلقاء جرَوْا سراعاً فأخبروا الوزير بعجيبة العجائب .

وأخبر الوزيرُ السلطانَ ، فقال السلطانُ : لا بد أن يكونَ علاءُ الدين صاحبه فقد طلب منى الأرضَ الفضاء ليبنى عليها قصراً للأميرة ، فلعله أراد أن يرينا قدرته فبنى هذا القصر العظيم فى ليلة واحدة .

أما علاءُ الدين فإنه طلب من أمه أن تذهبَ فى أفخر ملابسها ، وتحف بها حاشيتها ، لتخبر الأميرة الزوجة أن القصرَ مستعد لاستقبالها فى مساء هذا اليوم .

فذهبت ، واستقبلها الملكُ بحفاوة وتكريم .

وانتقل علاءُ الدين فى ركبه إلى قصره ، ولم ينس أن يأخذَ معه المصباحَ الذى كان السبب فى كل هذه الأبهة والغنى والجاه والعظمة .

وفى المساء خرجت الأميرةُ من قصر أبيها ، وسارت على البساط الجميل الذى أعده لها علاءُ الدين ، وكانت تحف بها الجوارى والمواشطُ يحملن الشموعَ التى أحالت الليلَ نهاراً ، والمغنيات ينقرنَ على الدفوف ، ويضربنَ على المزاهر ، ويزغردن ملءَ أفواههن ، حتى وصلت إلى

قصرها ؛ فخف علاءُ الدين لاستقبالها يخف به الغلمانُ والمماليكُ ، وأمسك بيدها إلى البهو العظيم . وكان مضاءً بآلاف الشموع التي تشع نوراً ساطعاً ، وتفوح روائح عبقةً ؛ وأجلسها إلى مائدة لم تر أكبر منها ، ولم تر أجملَ مما عليها ، فأكلوا هنيئاً . وشربوا مريئاً .

ولما انتهت الوليمةُ نظرت الأميرةُ ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال . فبهرها ما رأت فقالت لعلاء الدين :

أيها الأميرُ ؛ إنني كنتُ قبل ذلك أعتقد أنه ليس في الوجود قصرٌ أضخمُ وأفخمُ من قصر أبي . ولكن هذا القصر أوضحَ لي بجلاء فسادَ اعتقادي ، فإن قصرَ أبي ليس شيئاً مذكوراً إذا قيسَ بهذا القصر .

وما أتمت كلامَها حتى دخلت البهو ثلةٌ من الراقصات فأدينَ رقصات جميلةً على نغم أغنيات عذبة شنفت أسماع الأميرة . وكانت الأغنياتُ تدور حولَ وصف الأميرة وإطراء محاسنها .

وفي منتصف الليل دخل علاءُ الدين وزوجه مقصورتهما الخاصة.

وفي الصباح جاءهما الغلمانُ والجواري ، وقدما إليهما حللاً فاخرة جديدة .

وبعد تناوُل طعام الإفطار طلب علاءُ الدين أن يسرج له جوادٌ . وامتطاه وسار به إلى السلطان . ورجاه أن يشرفه بتناول طعام الغداء في قصر الأميرة .

فأجاب السلطانُ دعوته ، وسار يحفُ به الوزراءُ والكبراءُ وعظامُ الضباط والحرسُ الخاص إلى قصر علاء الدين . وكلما اقتربَ السلطانُ

وأتباعه من قصر علاء الدين — ازدادت فخامةُ القصر وعظمتهُ وجمالهُ واتساعه لهم ؛ ولكن لما دخل القصرَ . وسار إلى البهو العظيم ، ورأى النوافذَ المصنوعة من الدرّ واليواقيت والزبرجد والمرجان والماس — اعتراه ذهولٌ . ولما أفاق قال لزوج ابنته :

إن قصرَك أعجوبةٌ من أعاجيب الدنيا ! فأين نجدُ قصراً حيطانه من ذهب وفضة ، ونوافذه من جواهرَ وماس وزمرد وياقوت؟ ! ! ولكنى أعجبُ من شىء واحد ، فكيف يليقُ أن مثل هذا البهو العظيم تترك فيه نافذةٌ غيرُ تامة ؟ ! ! !

فقال علاءُ الدين :

لقد تركتها — يا سيدى — قصداً . لقد أردتُ أن أتركها حتى يكونَ لمولاىَ السلطان فضلُ إتمامها .

وظن السلطانُ أن ذلك سهلٌ ميسورٌ ، فأمر الوزيرَ أن يستدعى جميعَ الصاغة وتجار الجواهر . وأمرهم أن يتضافروا جميعاً على إتمام النافذة .

وجاءوا صَباحاً بجواهرهم وعددهم ، ورأوا النافذةَ الناقصةَ ، وطلب منهم أن يفحصوا النوافذَ الأخرى فيكملوها على غرارها .

وبعد الفحص ائتمروا وتناقشوا وانتهوا إلى قرار . وكلفوا رئيسهم أن يُفضىَ به إلى السلطان . ولما مثل بينَ يديه قال له :

يا مولاى ؛ إن ما لدينا من جواهرَ لا يكفى لإتمام النافذة ! !

فقال له السلطانُ : إن لدى من الجواهر ما يزيدُ على ما تطلبون ،

فتعالَ إلى قصري . وانتق مما عندى ما تحتاجُ إليه لإتمامه .

وأمر السلطانُ أن يؤتى بجواهره . وأن توضع أمام كبير الصاغة ليختارَ منها ما يشاء . فاختار منها مقداراً كبيراً . وكان من بين ما اختاره ما جاء به علاءُ الدين . ووهبه للسلطان .

وظلوا يعملون . وانتهى ما عندهم من الجواهر من غير أن يتموا ثلث النافذة . وأوفدوا رئيسهم إلى السلطان فأعطاه ما بقى عنده من الجواهر . ولكنها لم تف بما يكملُ نصفَ النافذة ؛ وذهب رئيسهم مرةً أخرى إلى السلطان . فطلب من الوزراء وكبار رجال الدولة أن يقدموا ما عندهم من جواهر ؛ وظلوا يشتغلونَ زُهاءَ شهر ومع ذلك لم يتم من النافذة إلا نحو نصفها !

وكان علاءُ الدين يعلم أن ما يبذلون من جهد لا بد ذاهبٌ سدى ؛ فجاءهم وقال لهم :

الآنَ وقد عجزتم عن إكمال النافذة ، فإنى أطلبُ منكم أن تهدموا ما صنعتم ، وأن تحملوا الجواهرَ إلى السلطان ووزرائه .

ولما انصرفوا ، استدعى علاءُ الدين الجنى ، وأمره أن يتم النافذة . فتمت فى ثوان معدودات .

ولما عاد الصاغةُ إلى الملك . وقدموا إليه جواهرَه ، وأبلغوه ما أمرهم علاءُ الدين أن يبلغوه إياه — ركبَ فرسه ، وأسرع إلى قصر علاء الدين ، ليعرفَ سببَ تصرفه مع الصاغة . واستقبل علاءُ الدين السلطانَ ، وسار به إلى البهو العظيم ، ولم يكن همٌّ للسلطان غير مشاهدته النافذة الناقصة .

ونظر السلطانُ إليها ، فهاله أن يجدَ فى مكان النافذة الناقصة نافذة كاملةً ، فظن أنه أخطأ مكانها ، فنظر إلى التى عن يمينها فرآها كاملةً ، وإلى التى عن شمالها فوجدها كاملةً . ولما تأكد أن النافذةَ التى ظل عشراتُ الصاغة شهراً أو يزيد لإتمامها . فلم يفلحوا ، ولم يكفهم ما عنده هو ووزراؤه ، وكبار رجال دولته من جواهر . أتمها علاءُ الدين فى وقت قصير لم يتمالك أنْ هرولَ إليه ، وقبله بين عينيه . وعانقه عناقاً طويلاً . وقال له :

يا بنى ؛ أى الرجال أنت ؟ ! وما حَوْلُكَ وطَوْلُكَ وقوتك حتى تفعل فى هذا الوقت القصير ما يعجزُ عنه عشراتٌ من مهرة الصاغة والصناع فى أكثرَ من شهر ؟ ! إنك يا بنى منقطعُ القرين ! إن منزلتك تزدادُ كل يوم ، ومقامك يعلو كلما قمتَ بعمل معجز !

وعاش علاءُ الدين بعد ذلك مع زوجته بدر البدور فى أرغد عيش وأهنأ حال . وابتسم الدهرُ لهما ، وسعد كل منهما بصاحبه ، وكان علاءُ الدين يخرجُ من قصره فى ركب يزرى بركب السلطان ، فيذهب إلى المساجد والمجتمعات ، ويوزع الصدقات على الفقراء ، كما يوزع الهدايا على الموسرين والأغنياء ، وبذلك كسب محبةَ الناس واحترامهم ، لا فرقَ بين غنى وفقير ، وصُعلوك ووزير .

وظل كذلك سنين !

٧

هذا ما كان من علاء الدين .

أما ما كان من الساحر المغربى فإنه كان يعتقدُ حين غادر الصينَ أن علاءَ الدين قد هلك ، ولكنه كانت تنتابه بعضُ الوساوس والشكوك ، فأراد أن يطمئن قلبه بمعرفة مصير علاء الدين ، ومصير الكنز الذى كان يريدُ أن يفتحه على يد علاء الدين ، ويستولى عليه وينتفعَ به ، ويسخر الجنى لخدمته ، وقضاء حاجاته .

وسار نحوَ الصين . ولما بلغها بعد أن قطعَ مسافات طويلةً فى سنين متعددة ، قصد إلى مدينة علاء الدين ، فلما بلغها أخذ يتسمع الأخبارَ ، فسمع عن القصر العجيب ، وعن زواج الأميرة بدر البدور من علاء الدين الذى كان فقيراً فأغناه اللهُ من فضله ، فسأل عنه فقيلَ له : إنه يمر فى الطرقات فى ركب عظيم ، وإنه يعطى المال عطاء رجل لا يخاف فقرًا ، ولا يخشى عدمًا .

ورأى الساحرُ علاءَ الدين فى إحدى زياراته فعرف فيه الصبى الصغيرَ الذى خدعه وظن أنه مات فى الكنز ، فعلم أن ذلك كله من عمل خادم المصباح ، فعزم على أن يستولى على المصباح بأى ثمن .

نزل الساحرُ فى خان ، وغير هيئته ، ولبس ملابسَ رثةً ، ثم ذهب إلى صائغ وطلب منه أن يعد له مصابيحَ مذهبةً جميلة ، فأعدها ،

فأخذها الساحرُ . وحملها على ظهره وسار فى الشوارع ينادى :

من يبيعنى مصباحاً قديماً بمصباح جميل جديد ؟ ! !

فظنه الناسُ مجنوناً ، واجتمع عليه الصبيةُ يهزءون به . ويسخرون منه ، فتحمل ذلك كله ، وصبر عليه . وفى أثناء ذلك تعرف ببعض الناس ، ووقف على كثير من الأخبار ؛ وقد عرف فيما عرف أن علاءَ الدين خرج للصيد فى رحلة قد تستغرقُ أسبوعين أو أكثرَ من أسبوعين.

فقصدَ إلى الجهة التى فيها قصرُ علاء الدين . وسار أمامَ القصر . وسار وراءه الصبيةُ يصيحون عليه ، ويسخرونَ منه . ويصفقون .

وكانت الأميرة تنظرُ من إحدى نوافذ القصر . فرأت جمعاً غفيراً من الصبية والغلمان يسيرون وراءَ رجل ؛ فدعاها حب الاستطلاع إلى أن ترسلَ إحدى جواريها لتسألَ عن السبب ؛ فعادت الجاريةُ وهى تضحكُ ، وأخبرت سيدتها أن الصبية وبعضَ الكبار متجمعون حولَ رجل يبيع مصابيحَ جميلة غايةً فى إتقان الصناعة لقاءَ مصابيحَ قديمة : يعطى مصباحاً جديداً ، ويأخذ مصباحاً قديماً .

فأنبتها الأميرةُ على سوء ما صنعت ، وعلى أنها تضحكُ من رجل كما يضحك الصبيان الأغرارُ ولكنها عجبت من البائع الجوال الغريب .

وجاءت جاريةٌ أخرى إلى سيدتها تقولُ لها :

إنى لا أدرى ما إذا كنت يا سيدتى قد لاحظت أن مصباحاً قديماً علاه الصدأ موضوع فى الغرفة التى يضع فيها سيدى صَوَاوين ملابسه ، فهلا أعطيناه لهذا البائع الجوال واستبدلنا به مصباحاً جديداً ؟ ! ! وإنى

واثقةٌ أن سيدى سيسر حين يعلمُ خبر هذه المقايضة التى سوف نتندر بها !

فاستهوت هذه الفكرةُ الأميرةَ ، وأرادت أن تختبر سخف البائع الجوال الذى يستبدل قديماً بجديد ؛ فأمرت الجارية أن تأتى بالمصباح ، وهى لا تعلم قيمته ، ومقدارَ حرص زوجها عليه — فأطاعت الجاريةُ . وجاءت بالمصباح القديم ، وذهبت به إلى الساحر المغربى المتخفى ، وأرتهُ إياه ، وسألته أن يأخذه ويعطيها مصباحاً جديداً

فلمعت عينا الساحر ، لأنه عرفَ المصباحَ من أول نظرة والذى زاده يقيناً أن مثلَ هذا المصباح القديم الصدئ لا يمكن أن يستخدم فى مثل هذا القصر الفخم ، وكل شىء فيه من ذهب وجواهرَ ؛ فاختطفه بشغف من يد الجارية ، ووضعه بين طيات ملابسه ، وقدم السلة التى بها المصابيحُ الجديدة ، وترك الجارية تختارُ المصباحَ الذى يحلو لها . فأخذت الجاريةُ مصباحاً ، فحملته فرحةً إلى سيدتها ؛ وما إن تم البدلُ حتى صاح الصبيةُ يسخرون من هذا التاجر الجوال المعتوه الذى يشترى قديماً بجديد .

أما التاجرُ المزعومُ فقد أسرع مجداً نحوَ الخان ، فقد نال ما تمنى ، وسرعان ما تفرق عنه الصبيةُ : لأنهم لم يستطيعوا متابعته فى سيره .

وما إن ابتعد عن القصر حتى عرج على أحد الشوارع الضيقة . ووضع السلة بما فيها من مصابيحَ قديمة ، وأخرى جديدة ، فى إحدى خرباته ، من غير أن يلحظه أحدُ السابلة ؛ ثم سار إلى أحد أبواب المدينة ، وخرج إلى ضواحيها ، وسار فى طرقاتها الخالية . وهناك جلس

تحتَ شجرة منعزلة حتى أقبل الظلامُ . ولما جن الليلُ . أخرج المصباحَ من بين ثيابه ، ودعكه ؛ فظهر خادمه الجنى . وقال له بخشونة وغلظة : ما الذى تريده منى ؟ ! إنى مستعد لإطاعتك أنا وخدمُ المصباح الآخرون .

فقال له الساحرُ :

أريدُ منك أن تحملنى أنا . وأن تحمل القصر الذى شيدته لعلاء الدين بمن فيه وما فيه إلى بلدى بالمغرب الأقصى .

ولم يجب الجنى ولكنه اختفى ، وتعاون هو وخدمُ المصباح . وحملوه هو والقصر إلى بلده بالمغرب الأقصى كما أمر .

وفى الصباح الباكر عندما استيقظ السلطانُ كعادته كل يوم وقصد إلى النافذة التى تعود أنْ يقفَ أمامها ليمتع نظره برؤية قصر الأميرة ، هاله أن لا يرى القصرَ فى مكانه ! !

وظن أولَ الأمر أن عينيه تخدعانه . فدعكهما ونظرَ ، ثم نظر . فلم يرَ القصرَ . واستدعى زوجته . وطلب منها أن تنظرَ إلى القصر . فنظرت ، ثم نظرت ؛ فلم تره . فانزعج السلطانُ . وامتلأ قلبه خوفاً ورعباً . وقلق هو وزوجته على ابنتهما . وخشيا أن تكون قد لحقها ضر . أو مسها سوءٌ .

ونادى السلطانُ الغلمانَ والجوارى . وعلم الجميعُ الخبرَ . وعرفه الوزيرُ الأكبرُ ، فخف إلى السلطان ، فوجده فى هم ناصب . وذهول عجيب ، لا يدرى سر اختفاء القصر .

وقال الوزير — وكان يكرهُ علاء الدين الذى غلبه هو وابنه على أمرهما ، وحل فى المكان الأول من قلب السلطان — قال :

لقد كنتُ أظن أن علاءَ الدين من الساحرين ، لأن أعماله لا تستطيع إتيانها البشرُ . وإن الذى يقيم فى ليلة قصراً منيفاً يعجز عظمة السلطان بما عنده من حوْل وطوْل على إتمام نافذة منه فى شهر ، لحرى بنا أن نخشاهُ ونخافهُ ونتوجس منه خيفة . وقد صدق ظنى ، وضاعت منا الأميرةُ . والرأىُ عندى أن نبعثَ الجند وراءه ليأتوا به على جناح السرعة ، فقد ينبئنا عن سر اختفاء قصره .

ومن يدرى ؟ ! فلعل رحلةَ صيده كانت مبيتةً ليختفى القصرُ فى أثنائها ، فيحاول أن يتخلصَ من جريرته !

فأرسل السلطان كتيبةً من الفرسان ، تبحث عنه فى الجهات التى يظن أنه يصيدُ فيها . فعثرت عليه يلهو بصيد الطيور من بركة بعيدة تكثر فيها طيورُ الصيد ، فقبضت عليه وجاءت به . وقد عامله رئيس الكتيبة معاملةً خشنة ، فيها قسوةٌ وغلظةٌ . فعجب علاءُ الدين مما وقع . ولكنه لم يملك إلا التسليمَ حتى تتكشفَ له الأمورُ .

ولما وقعت عليه عينُ السلطان لم يستمع لكلمة واحدة يقولها ، بل أمر فى ثورة جامحة ظاهرة بقتله .

وأوشك علاءُ الدين أن يلقى حتفه على يد رجل أحسن إليه ، لولا أن انتشر الخبرُ فى المدينة انتشاراً سريعاً ، فتنادى الناسُ ، وتجمعوا ، وخطب خطباؤهم ، وعددوا محاسنَ علاء الدين وأفضاله ، وعطفه على

الفقراء ، وبرد بالناس ، وهددوا من يمسه بسوء بالعمل على الدفاع عنه ، ولو كان السلطان .

وأسرع خلصاءُ السلطان إلى القصر . وأبلغوه الخبرَ . فخاف من ثورة الناس الجامحة فأطلق سراحَ علاء الدين .

ولما وجد علاءُ الدين نفسه حراً طليقاً خاطب السلطانَ بقوله :

ماذا جنيتُ حتى أستحق منك الموت ؟ !

فقال له الملك فى غضب :

أيها التعسُ ! ألا تعلمُ جريرتك ؟ ! ! تعال معى لأريك إياها ! وقاده إلى النافذة المواجهة لقصره . وقال له :

انظر ! ! أينَ قصرك ؟ ! وأين الأميرةُ ؟ ! !

فنظر علاءُ الدين ثم نظر ولكنه لم ير القصرَ . فكاد يغمى عليه من هول المصيبة . ولما ثاب إلى رُشده قال مخاطباً الملكَ :

أجل ! ! إن القصرَ قد اختفى ، ولكن ثقْ أن ليس لى يدٌ فى اختفائه ، ولاعلم لى بسبب ذلك . وكل ما أطلبه منك أن تمهلنى أربعينَ يوماً . فإذا لم أرجع القصر بالأميرة إلى مكانه فأعدك وعدَ حر أننى سآتيك ، وأقدم نفسى إليكَ ، تفعل بى ما تشاءُ .

فقال له السلطانُ فى جفوة وغلظة : أمهلتك أربعين يوماً ، ولكن لا تنس أن تأتى بعد انتهاء المدة لنرى رأينا فيك .

قال علاءُ الدين : سمعاً وطاعةً يا مولاى .

خرج علاءُ الدين من حضرة السلطان ، كاسف البال ذليلاً ،

وقد تجهم له الوزراءُ والكبراءُ ، وكان قد غمر الجميعَ بفضله . ولكن الحسدَ كان يبغضه إليهم . كانوا يمالئونه ولا يحبونه ؛ فلما غدر به الزمانُ . وتخلفَ عنه السعدُ . وذهب القصرُ — تنكروا له ، فقد أصبحَ فقيراً لا حولَ له ولا قوة ؛ أما عامةُ الناس فكانوا يخفون إلى لقائه . والترحيب به . وإفساح الطريق له إذا سار بينهم .

ومكث علاء الدين ثلاثةَ أيام على الطوى والجوع ، لا تميل نفسه إلى طعام ولا شراب . ولو مالت لما وجدت . ولا يعرفُ ماذا يفعل . ولا يدرى : من ذا الذى نقل قصره ؟ أهو الساحرُ المغربى ؟! ولكن منْ ذا الذى أخبرَه بخروجى حياً من الكنز ؟ ! هل ظهر ساحر آخرُ وأخفى القصرَ بسحره ؟ ! هل عثر أحدٌ على المصباح وعرف سره مصادفةً وكان هو الجانى الأثيم ؟ ! !

وشعر فى اليوم الثالث أنه يريدُ أن يحك إصبعه ، فمد يده ليفعل ذلك . فلمست الخاتم الذى كان الساحرُ المغربى قد أعطاه إياه قبل دخوله الكنزَ . فلم يشعر إلا وعفريتٌ من الجن ظهر أمامه . فعرف فيه خادمَ الخاتم ، وقال له : لبيكَ يا سيدى لبيكَ ، ماذا تريدُ ؟ ! إنى فى خدمتك أنا وخدم الخاتم الآخرون .

فدهش علاءُ الدين أولَ الأمر ؛ ثم ذكر الخاتمَ وخادمه الذى أخرجه من الكنز بعد أن سجنه فيه الساحرُ ، وعجب لنسيانه الخادم وخادمه ؛ فقال له : أريدُ منك أن تخبرنى أين قصرى ؟ ! وأن ترجعه إلى المكان الذى كان فيه .

فقال له الخادم :

أما مكانه فإنى مخبرُك به : إنه فى بلاد المغرب . أما إرجاعهُ فليس ذلك فى استطاعتى ، ولا يقدر على ذلك إلا خادمُ المصباح وأعوانه .

فقال له علاءُ الدين : أجل ! ! لقد علمتُ منْ غريمى من ذكرك بلادَ المغرب ، فأريدمنك أن تحملنى إلى مكانه وتتركنى هناك .

فما إن قالها حتى حمله خادمُ الخاتم وطار به . وفى لمح البصر وضعه على مقربة من القصر فى أقصى بلاد المغرب .

فسار علاءُ الدين حتى وصلَ إلى القصر ، وصادف أن كانت إحدى الجوارى تطل من نافذة القصر . فرأت علاءَ الدين ، فأسرعت إلى سيدتها ، وأخبرتها بأن سيدها علاءَ الدين تحتَ النافذة ؛ فوجبَ قلبُ الأميرة ، وأسرعت إلى النافذة ، ونظرت فرأت علاَ الدين ، فكادت تجن من الفرح .

ولقد نبه صوتُ فتح النافذة علاءَ الدين ، فنظر إلى النافذة فوجد زوجته الحبيبة تلوحُ بيدها ، وقالت له :

اذهبْ إلى باب القصر فقد أرسلتُ من يفتحه لك فأسرعْ إلينا قبل أن يأتى الساحرُ الذى خرج منذُ قليل وسوف يعودُ على عجل .

وسرعانَ ما كان علاءُ الدين فى مقصورة الأميرة الخاصة يقبلها بين عينيها ، ويعانقها عناقَ الشوق المكبوت . وسالت دموعهما : دموع الفرح ، فرح اللقاء بعد أن ظنا كل الظن أن لا تلاقى ؛ وما إن استقرا بعد اللقاءَ حتى سأل علاءُ الدين زوجته قائلا : أتعرفينَ يا أميرتى ماذا

جدثَ للمصباح القديم الذى كنتُ أضعه فى غرفة ملابسى ؟ !

فقالت الأميرةُ :

وأسفاه يا زوجى العزيز! يبدو لى أن سبب مصابنا الجلل هو ذلك المصباحُ الذى تسألنى عنه ، فقد جاءنا بائعٌ جوالٌ يطلبُ شراء مصباح قديم بمصباح جميل جديد، ولما كنتَ لم تقلْ لى شيئاً عن ذلك المصباح القديم الصدئ فقد ظنتْ جاريتى فلانةً أنك ستسر حين تعلم أننا استبدلنا به مصباحاً جميلا جديداً . فنحن ، إذن ، سببٌ غيرُ مباشر لما أصابنا . والمسئوليةُ مشتركةٌ بيننا ، لكتمانك أى سر عنى وأنت تعلم مقدار حبى لك وإخلاصى ، فما ينبغى أن يكون بين الزوجين سر مكتومٌ فأخبرنى : ما سر هذا المصباح الذى كان السبب فى مصيبتنا ، ونقلنا إلى بلاد المغرب ؟ !

قال علاء الدين :

إذن ، عرفتُ غريمى الساحر الذى أراد أن يدفننى حيًّا . هل تعرفين يا أميرتى أين يخفى المصباح ؟

قالت : إنه يحرص عليه حرصه على حياته ، ولا يأتمن عليه أحداً . إنه يضعه بين طيات ملابسه لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً ؛ ولقد أظهره لى مفتخراً بحذقه وذكائه مطرياً الحيلة التى حصل عليه بها .

فقال علاءُ الدين :

إن لدى خطةً ، إذا أحكمنا تنفيذها تخلصنا من هذا الساحر الماكر ، ولا بد من ذهابى إلى المدينة . وسأعود فى الظهيرة متخفياً .

فليكن البابُ السرى مفتوحاً حتى أدخل منه فى غفلة من الساحر .

وخرج علاءُ الدين ، وسار فى الدرب الموصل إلى المدينة . فالتقى بفلاح ، فأقرأه السلام فرد عليه تحيته بأحسن منها . ثم اقترب منه ورجاه أن يأخذ ملابسه ويعطيه ملابسه . فتردد الفلاحُ فى بادئ الأمر ظناً منه أن علاء الدين يمزحُ معه . فلما رأى فى ملامحه الجدّ أسرع فى خلع ملابسه . وتبادلا . وولى الفلاحُ فرحاً .

ودخل علاءُ الدين المدينة . وسأل عن حى العطارين ، فأرشد إليه . فذهب إلى كبير العطارين . وطلب منه عقاراً خاصاً ، فنظر إليه العطارُ نظرة استغراب ، لأن الدواء الذى طلبه كان غالى الثمن ، وزيه وشكله لا يبشران بأنه قادرٌ على دفع الثمن . فقال له :

إن ثمنه غال ، وقد لا تستطيعُ دفعه .

فقال له علاءُ الدين : لا تأخذن الأمور بظواهرها ؛ ما ثمنه ؟

قال العطارُ : إن ثمنه دينارٌ .

فأخرج علاءُ الدين كيسه . وأخرج منه ديناراً . فاعتذر الرجلُ وأسرع ووزن له العقار الذى طلبه منه . وأعطاه إياه .

ورجع علاءُ الدين إلى القصر ، ووجد الباب السرى مفتوحاً ، ووجد الأميرة فى انتظاره .

قال علاءُ الدين للأميرة :

إن الخطة أنك إذا جاءك الساحرُ الليلة تتظاهرين بأنك رضيت بالأمر الواقع بعد يأسك من رجوعك إلى زوجك وأبيك ؛ وتقابلينه بالبشر

والترحاب ، وحدثيه حديثاً لطيفاً ليناً ، وتناولى معه الطعام والشراب . واسقيه من هذا الشراب الذى أحضرته ، وإياك أن تذوقى قطرةً مما فيه . واحرصى على أن يشرب هو الكوب كله ! فإذا ما شربه مات فى الحال ، فنحصل على المصباح ، فنأمر خدمه بنقلنا ونقل القصر إلى وطننا العزيز .

أخفت الأميرةُ علاء الدين فى مقصورتها الخاصة ، وذهبت إلى جناحه الخاص بعد أن لبست أفخر ملابسها ؛ ولما جاء الساحرُ استقبلته بثغر باسم . ونفذت الخطة التى دبرها لها علاءُ الدين ، وأعطت الساحر الكوب المسموم فشربه من فرْط فرحه حتى آخر نقطة فيه وما استقر ما فيه من شراب فى جوفه حتى مال رأسه على جسمه . ثم تمدد على الأرض جثةً هامدةً .

وانتقل الخبرُ إلى علاء الدين ، فأسرع إلى الأميرة . وأسرعت إليه الأميرةُ ، وارتمت بين أحضانه ، وبكت فرحا بنجاتهم من الساحر الفاجر .

وقال علاءُ الدين للأميرة :

خيرُ ما نفعلُ أن نرجع سريعاً إلى أبيك وأمك فإنهما يتقلبان على الجمر لفقدك ! اذهبي إلى مقصورتك لتستعدى للقائهما . فسوف لا تمضى بضعُ دقائق حتى يكون القصرُ قد رجع إلى مكانه .

وما إن دخلت الأميرة مقصورتها حتى ذهب علاءُ الدين إلى جثة الساحر وفتشها فعثر على المصباح ، فدعكهُ . فجاءه خادمه الجنى فرحاً ، وقال له : لبيك ! ! لبيك ! !

فقال علاءُ الدين : آمركَ أن تنقل القصر بنا إلى مكانه الأول فى الصين .

وما إن قالها علاءُ الدين حتى نفذها الجنى .

ولم يشعرُ علاءُ الدين والأميرةُ وغلمانهما وحواريهما فى أثناء نقله إلا بهزة خفيفة حين رُفع . وهزة مثلها حين وُضع فى مكانه .

وفى الصباح التالى استيقظ السلطانُ كعادته مبكراً . ونظر من النافذة كما كان يفعل . فهاله أن يجد القصر فى المكان الذى عهده فيه ؛ فظن أنه من فرْط شوقه إلى ابنته يتخيلُ ، ولكنه عاود النظر فرأى القصر . فصاح من الفرح . ونادى زوجته فلبتْ نداءه . ونظرت فرأت القصر فخرت مغشياً عليها من فرط اغتباطها . ولما أفاقتْ أسرعتْ هى والسلطانُ إلى قصر الأميرة .

أما علاءُ الدين فإنه استيقظ فى الصباح الباكر ، ولبس أفخر حلله ، وذهب إلى البهو العظيم ذى الأربع والعشرين نافذةً ، وجلس على إحدى أرائكه . ولما أعلم بمجىء السلطان وزوجته خف إلى استقبالهما ، وسار معهما إلى غرفة الأميرة . فعانقت الأميرةُ أباها ، ثم ارتمت فى أحضان أمها ، وسالت دموعهم من فرط ما بهم من الفرح والسرور .

وقص علاء الدين عليهما القصة عند ما سألاهُ عنها . واعتذر السلطانُ لعلاء الدين عن سوء معاملتهم له . ومما قاله :

إن حزنه الشديد على فقد ابنته أفقده صوابه .

فقال له علاءُ الدين : ليس لدى ما يدعونى إلى الشكوى من معاملتك لى . فقد كان ذلك طبيعياً ، ولو كنتُ فى مكانك لفعلتُ ما فعلت ؛ إن الساحر الماكر الذى لقى جزاءه كان السبب الأول والأخير فى نكبتنا .

٨

ولقد كان لذلك الساحر المغربى الذى أراد بعلاء الدين سوءاً مرتين ، ونجاهُ اللهُ فى كلتيهما أخٌ لا يقل عنه فى الكهانة والسحر ، ويفوقه فى المكر والخبث وحب الشر .

وكانا يسكنان فى مدينتين مختلفتين . بينهما صحارى وبحار وسهول ونجادٌ . ولكنهما كانا قد اتفقا على التراسل مرةً كل سنة .

ولما لمْ يصلْ من الساحر الرسالة المتفق عليها إلى أخيه ساورته الوساوسُ . فاستشار تخت رمله ووسائله السحرية الأخرى، فعلم منها أن أخاه لم يعدْ على قيد الحياة . وأنه قد مات مسموماً . وأن الذى سمه من أصل وضيع ، ولو أنه متزوجٌ من أميرة . وابنة سلطان عظيم . واسمه علاءُ الدين . ويسكن فى عاصمة بلاد الصين .

حزن الساحرُ المغربى على فقد أخيه . وحز فى نفسه أنه مات بفعل فاعل ؛ فعزم على الانتقام . وفى الحال رحل إلى الصين . ووصل إليها بعد اختراق فياف وقفار وسهول وجبال . ولقى فى سفره هذا نصباً وعنتاً .

ولما وصل إلى عاصمة الصين نزل فى خان . ولم يمكثْ طويلا حتى تكرر سماعه الناس يتحدثون عن امرأة صالحة ؛ يذهب إليها الناسُ رجالاً ونساء يلتمسون بركتها . ويشيعون عنها الورع والصلاح والزهد وإتيانها المعجزات .

وفكر في خطة يستعينُ فيها بسمعة هذه المرأة الصالحة على تنفيذ خطته فسأل عن مكانها وعن نوع المعجزات التى تأتيها .

فاستغرب الرجلُ الذى سأله وقال له :

عجبتُ من سؤالك عنها وعن مكانها وعن معجزاتها ! ! أفى المدينة من يجهل ذلك ؟ ! أو بعضه ؟ ! يخيل إلى أنك لست من أهلها ! إن هذه المرأة الصالحة مثالُ التقوى والزهد ، وتأتى بمعجزات هى العجبُ العجابُ ، وهى لا تخرجُ من خلوتها إلا فى يومى الاثنين والجمعة ، أو إذا دعاها داعى الخير ؛ وهى كعبةُ القصاد وبخاصة المرضى ، وهى لا تمسحُ بيدها على مريض إلا تحسنتْ حالتهُ ، ورجعتْ إليه صحته .

ولما عرف مكانها ذهب إليها ليلاً وقتلها ودفنها فى خلوتها ، وأخرج من جرابه أصباغاً عدة ، ودهن وجههُ وغضنه وأكثر تجاعيده حتى ليخيل لمن يراه : أنه وليةُ الله التى يعرفها الناسُ جميعاً ، ثم لبس ملابسها وتلثم بلثامها ، وأدار على وسطه حزامها ، وأخذ مسبحتها الطويلة فى إحدى يديه ، وأمسك عصاها بيده الأخرى ، وقصد فى الحال إلى قصر علاء الدين .

وما إن رأى الناسُ من ظنوه أنه وليةُ الله الصالحة حتى سارعوا إليها يقبلون يديها ويلتمسون بركتها ، ويلثمون ذيل ثوبها ، أما المرضى فكانوا يقتربون منها راجين أن تضع يدها عليهم ، وتدعو لهمُ الله أن يهب لهم الشفاء ، فكانت تفعلُ وتتمتمُ بكلمات غير مفهومة ؛ وأخيراً وصلت إلى ميدان القصر .

ولقد كان عددٌ منْ حولها من الناس كثيراً ، وكانوا يتزاحمون على الوصول إليها لالتماس البركة ؛ وكانت لهم جلبةٌ ضوضاءُ ، وصلت إلى مسامع الأميرة التى كانت جالسةً فى البهو العظيم ، فأطلت من النافذة ؛ وسألت إحدى جواريها : ما خطبُ الناس ؟ !

فقالت : إنهم مجتمعون حول ولية الله فاطمة .

ولما كانت الأميرةُ تسمع العجب العجاب عنها ، ولم ترها ، فإنها ودت أن ترلها ؛ وتستمع إلى حديثها ؛ ليصيبها شىء من بركتها .

فأرسلت أربعةً من غلمانها إلى الولية المزعومة ، وما إنْ رأى الناسُ أربعةً من حاشية الأميرة قادمين نحو الولية الصالحة حتى تفرقوا .

أما الساحرُ — أى الوليةُ الصالحةُ — فقد شاهد أن الغلمان يتقدمون نحوهُ . فسار إليهم وقد سر من أن خطته سائرة سيرها المرسوم لها .

وقال أحدُ المماليك له : أيتها الولية الصالحةُ ! إن الأميرة تريدُ أن تراك ، وقد أرسلتنا فى طلبك .

فقالت الوليةُ المزعومةُ : إن تلبية دعوة الأميرة لشرفٌ كبيرٌ لى ، وإنى مستعدةٌ للذهاب معكم إليها .

ولما مثلت بين يدى الأميرة حنت رأسها تحيةً وإجلالاً ، فقالت لها الأميرةُ : أمى الطيبة ! إنى أطلب منك شيئاً واحداً ، وأرجو ألا ترفضيه ؛ وهو أن تقيمى معنا حتى نأتم بك فى حياتنا ، ونحذو حذوك فى سلوكك وصلاتك وصومك ، فقد تنفعنا قدوتك الحسنةُ .

فقالت فاطمةُ المزعومةُ : أيتها الأميرةُ ؛ أرجو أن لا تسأليني

ما لا قبل لى به ؛ لأن فيه تعطيلاً لشعائر الدين من صلاة أو عبادة .

فقالت الأميرةُ : إن مكثك معنا لا يمنعك من عبادتك ونسكك وصلاتك؛ فإن فى قصرى عشرات المقصورات ، فاختارى منها ما يحلو لك ، ولك مطلق الحرية فى تأدية فرائض دينك كما لو كنت فى خلوتك .

أما الساحرُ الذى لم يكنْ يحلمُ بأكثر من أن تسمح له بالدخول إلى القصر حيثُ يسهلُ عليه تنفيذ خطته - فإنه قال للأميرة :

أيتها الأميرةُ ! على الرغم من رغبتى فى الوحدة لعبادة الله فى سر عن الناس ، ومنأى عن الضوضاء والصخب ، ليخلص تفكيرى فى الله ، فإنه لا يسعنى أنْ أرفض طلب أميرة صالحة مثلك .

فسرت الأميرة من مقالها ، ثم قالت لها :

تعالى معى لأريك المقصورات التى تختارين واحدةً منها .

واختارت الصالحةُ المزعومةُ أقل الغرف وأصغرها ، إمعاناً فى إيهام الأميرة بصلاحها وتقواها ، وقد كانت الأميرة تود أن تجلس وابنةُ الله معهم فى البهو الكبير ، وتتناول فيه الطعام ، فأبتْ ؛ لأنها خافتْ أن يفتضح أمرُها إذا كشف عنها القناعُ لسبب من الأسباب ، فقالت للأميرة :

أعفينى يا أميرتى من الأكل معكم ، وإنه ليكفينى فى دنياى كسرة أمسكُ بها رمقى ، فلتأذنى فى أن أتناول طعامى المتواضع فى غرفتى الخاصة.

فسمحت لها الأميرةُ بذلك ، وقالت لها :

أرجو أنْ تشعرى أنك فى خلوتك ، وسأرسل لك غداءك وعشاءك وفطورك كلَّ يوم فى غرفتك الخاصة ، وإنى أريد أن أكلمك فى أمر

بعد تناولك طعام الغداء .

وبعد أن تغدت العابدةُ الساحرةُ ، أرسلت الأميرةُ إليها جاريةً تصحبها إلى حيث تجلس فى البهو الكبير لتتحدث إليها فيما رغبت أن تتحدث إليها فيه .

ولما جاءت قامت لها الأميرةُ ، وأجلستها ، وقالت لها :

إن قصرى قد شرف بأصلح امرأة ، وقد حلت بقصرى البركةُ وإنى أريدُ بعد أن أطوف بك فى أنحاء القصر أن تخبرينى صراحةً عن رأيك فيه ؛ وقبل أن نبدأ الطواف بأقسامه الكثيرة أسألك أن تبدى لى رأيك فى هذا البهو العظيم .

فسرحت المرأةُ ناظريها فى أرجاء البهو ، وبعد صمت طويل قالت : مع أنى عشتُ وحيدةً بعيدةً عن أبهة الدنيا وزخرفها . فإنى أعتقدُ أن هذا البهو عظيمٌ وفخمٌ ولا ينقصه إلا شىءٌ واحدٌ .

فقالت الأميرةُ فى استغراب : بالله عليك أيتها الوليةُ الصالحةُ اتخبرنى عن الشىء الذى ينقصُ هذا البهو العظيم ! لقد سألتُ عشرات الناس العارفين فأجمعوا على أنه فريدٌ ، ولا ينقصه شىء .

فأرجوك أن تدلينا على هذا النقص لنكمله فى الحال .

فقالت الوليةُ الطيبةُ : أستميحك الصفح إذا كان ما بدر منى ضايقك ، ولكنى جبلتُ على الصراحة ؛ إن هذا البهو فى رأيى ينقصُه أن يعلق فى وسط قبته بيضة الرخ . فإذا فعلت ذلك فلا يكونُ له مثيلٌ فى أركان الأرض الأربعة ، ويصبحُ بعد ذلك أعجوبة الدنيا .

فقالت الأميرةُ وهي فرحةٌ مستبشرةٌ : وما الرخ ؟ وكيف الحصولُ على بيضه .

فقالت — المرأةُ الطيبةُ — الساحرُ المتخفي : إنه طائرٌ عظيمُ الجرم ، يسكن في قلل جبال قاف ، وإن المهندس الذي استطاع أن يبني هذا القصر الفخم الضخم يستطيعُ أن يحضر لك بيضةً من بيض الرخ .

فابتهجت الأميرةُ بهذه الفكرة ، وشكرت ولية الله على توجيهها وإرشادها ، وعدت ذلك منها نصيحةً غاليةً تحرصُ على العمل بها .

وقضت الأميرةُ وقتاً غير قصير تجاذبها أطراف الحديث في شتى الموضوعات . ومع ذلك فإن بيضة الرخ لم تفارق ذهن الأميرة ، وعزمت على أنْ تطلب من علاء الدين أن يحضر لها واحدةً بمجرد أن تراهُ .

وجاء علاءُ الدين في المساء ، فاستقبلته الأميرةُ بثغر باسم ، ثم أخذت تتحدثُ إليه في شأن القصر ، وقالت له فيما قالت :

لقد كنتُ أظن أن قصرنا أعظمُ قصور الدنيا ، وأنه كاملٌ لا ينقصُه شيءٌ ، ولكن وضح اليوم أنه ينقصُه شيءٌ ، هو عزيزُ المنال على غيرك ، ولكنه سهلٌ هينٌ عليك !

فسألها علاء الدين ، وثغرُه باسمٌ ، ووجهه متهللٌ :

وما هو هذا الشيء الذي ينقص قصرنا ؟ ! !

قالت الأميرةُ : إن هذا الشيء هو بيضةُ الرخ ، يؤتى بها فتعلقُ في وسط قبة البهو الوُسطى .

فقال لها علاءُ الدين ! يا أميرتي ! إنه ليسعدني أنْ ألبي ، وأن أجيبك إلى ما تطلبين .

وخرج علاءُ الدين ، وخلا إلى نفسه فى غرفة خاصة ومعه المصباحُ ، فدعكه فجاءه الجنى خادمه .

فقال له علاءُ الدين : أريدُ أن تحضر لى بيضةً من بيض الرخ ، وتعلقها فى القبة الكبرى للبهو العظيم .

وما انتهى علاءُ الدين من كلامه حتى اهتزت أركانُ القصر اهتزازاً شديداً أوشك القصر معه أن ينقض ، وصرخ الجنى صرخة دوت فى أرجائه ، وذهل لها علاء الدين .

ثم انفجر الجنى ، وأخذ يرغى ويزْبد ويقول :

ألم يكفك ما صنعتُ لك ؟ ! ! جمعتُ لك الأحجار الكريمة من كل واد ، وبنيتُ لك قصراً عظيماً ليس له مثيلٌ فى العالم .

ألم يكفك ذلك ، وطلبت منى أن أحضر لك سيدى ؟ ! يالنكران الجميل ، وكفران النعمة ! !

إن طلبك هذا لو كنت أنت الذى فكرت فيه لهدمتُ القصر على رأسك ورأس الأميرة ، ولكنك والأميرة كنتما آلة فى يد الساحر المغربى الخبيث ، فهو الذى حرض الأميرة على أن تطلب منى ما طلبت ، وهو يعلمُ أن فى ذلك هلاككما ! إنكما تظنان أنه فاطمةُ وليةُ الله الصالحةُ الزاهدةُ المتعبدة ، إنها ليست هى ، بل هو قاتلها . لقد تسلل إلى خلوتها فى هدأة الليل وقتلها ودفنها . ودهن وجهه ليشبهها ، ولبس ملابسها ، وجاء إليكم ليسعى فى قتلكما ، فإذا لم تسرع إليه وتقتله قتلك أخذاً بثأر أخيه الساحر المغربىّ الأول .

قال الجنى مقالته واختفى . . . ! !

وعاد الهدوءُ إلى علاء الدين تدريجاً ، ولما هدأ تمام الهدوء ذهب إلى حيثُ تجلس الأميرةُ وقد نوى أمراً ، تظاهر بأن به وجعاً شديداً فى ذراعه ، وأخذ يتأوه ، فذعرت الأميرةُ وقالت له :

إن من حسن الحظ أن بالقصر ولية الله الصالحة فاطمة ، المشهورة بأنها تبرئُ من الأمراض ، وتشفى من العلل .

فقال لها : أرجوك أن تحضريها على جناح السرعة لأن الألم فى ذراعى شديدٌ .

فذهبت الأميرةُ إلى مقصورة الساحر المزعوم الخاصة ، ورجتها أن تأتى معها لتخفف بركتها ما يشعرُ به زوجها من ألم !

وافتر ثغرُ الساحر الماكر ، وابتسم ابتسامةً صفراء باهتةً ، لأنه رأى الفرصة قد واتتهُ ، فنهض معها ، وتوجها إلى حيثُ ينام علاء الدين على أريكة يتظاهر بالشعور بألم شديد .

ولما شعر علاءُ الدين بمقدمهما نظر إلى الساحر متفرساً ، فرأى أنه يخبئ سكيناً كبيرة بين طيات ثيابه ، وقد وضع يده على مقبضها استعداداً لغرسها فى صدره ، وما إن اقترب الساحرُ من علاء الدين حتى مد إليه يده بسرعة البرق ، واختطف السكينة وأغمدها فى صدره ؛ فسقط على الأرض ، يتخبط فى دمه ، ومات .

وهال ذلك الأميرة ، فصرخت وولولت ظانةً أن علاء الدين قد أصابه مس وطاف به طائفٌ من الجن ، فقتل نفساً طاهرةً حرم الله

قتلها ، فقالت له — والأسى يملأ قلبها:

ماذا فعلت يا زوجى العزيز ؟! لقد قتلت ولية الله فاطمة من غير ذنب جنته !

فقال لها : يا أميرتى ! لقد نجاك الله ونجانى من شر هذا الغادر الأثيم الذى أرديته قتيلاً !

ليس يا أميرتى ما ترين أمامك فاطمة الزاهدة . ولكن الذى أمامك ساحرٌ غادرٌ جاء ليقتلنا أخذاً بثأر أخيه الساحر الذى قتلناه فى بلاد المغرب ، أما الزاهدة والولية الصالحة فقد قتلها هذا الوغد الغادر الأثيم .

ثم تقدم إلى الجثة ، وكشف اللثام عن وجهها : فظهرت ملامح الرجل الغادر : والساحر الماكر .

لقد رد الله كيد الساحرين إلى نحرهما ، فماتا أشنع ميتة جزاءً وفاقاً لما اقترفته يداهما !

أما علاء الدين وزوجه الحبيبة . فقد عاشا سعيدين مدةً من الزمان ، مات بعدها السلطان . ولما لم يكن له ولد تولت الأميرة السلطنة ، ووكلت تصريف شئونها لزوجها العزيز ، فسعدا . وسعدت السلطنة بهما ، وعاشا طويلاً فى سعادة وعز ومجد . وأنجبا ذريةً صالحة أنبتاها نباتاً حسناً .

وظلا كذلك إلى أن أتاهما هادم اللذات ومفرق الجماعات . وسبحان الحى الذى لا يموت .

رقم الإيداع		١٩٩١ / ٣٤٩٣
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3246 – 7	ISBN

١ / ٩٠ / ١٨٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

ألف ليلة وليلة

هذه طبعة جديدة من هذه المجموعة التى تنتمى إلى التراث الشعبى.. والتى نالت إهتمامًا عالميًا فى الشرق والغرب.. وترجمت إلى كل لغات العالم..

وتمتاز هذه الطبعة بحسن الصياغة التى تناسب عقول الشباب والناشئة.. وتخلو من الشوائب التى توجد فى طبعات كثيرة..

إنها واحدة من عيون التراث الذى تحرص دار المعارف على تقديمه إلى القارئ العزيز..

صدر منها:

١ - شهر زاد ودنيا زاد
٢ - السندباد البحرى
٣ - قمر الزمان
٤ - الصياد والعفريت
٥ - معروف الإسكافى
٦ - الأحدب والخياط
٧ - عبدالله البرى وعبدالله البحرى
٨ - أبوالحسن وجاريته تودد
٩ - الحصان المسحور
١٠ - على بن بكار وشمس النهار
١١ - على الزئبق ودليلة المحتالة
١٢ - علاء الدين والمصباح العجيب
١٣ - على بابا



دار المعارف

قرش جنيه
٣.٥٠